الباب الثانى

الطريق

الفصل الأول : الطريق فى جوه المادى .
الفصل الثانى : الطريق فى جو القدوة والتأسى .
الفصل الثالث : الطريق فى جوه الأخلاقى .
الفصل الرابع : الطريق فى جو التوبة .
الفصل الخامس : الطريق فى جو الإخلاص .
الفصل السادس : الطريق فى جو المعراج .
الفصل السابع : الطريق من زاوية الولاية والكرامات .
الفصل الثامن : متناثرات عن الطريق فى الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

الفصل الأول
الطريق فى جوّه المادى

بلغ سهل النضوج ، والنضوج الروحى بتوفيق الله بعد جهاد ومجاهدة ، بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة : وحينما أذن الله له فى الدعوة إليه أخذ يدعو إليه على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى .

والطريق الذى رسمه إنما هو نتيجة خبرة عالمة ، ونتيجة وصل إليها عالم مجرب لقد سار سهل مع التجربة الروحية فى مسالكها ، ومدارجها ، ومعارجها ، لقد عاشها ؛ لقد كان يحياها حياة الذكى المتبصر العالم ، لقد عاش التجربة الروحية طولاً وعاشها عرضًا ؛ لقد فنى فيها فكان هو هى ...

ورسمها .

كيف رسمها ؟ ما هى سماتها ؟ ما الطريق ؟

والطريق له أجواء مترابطة ، متلازمة أو متلاحمة ، ونبدأ ، بتيسير الله بالكتابة عن الطريق فى جوه المادى حسبما خطه سهل .

ونعنى بالطريق فى جوه المادى : الحياة من ناحية المأكل والمشرب .

وبعض الناس لا يبالى بطعامه وشرابه من ناحية الحل والحرمة ، وبعضهم لا يهتم الاهتمام الدقيق لذلك ، ولكن الصوفية يرون أن أكل

الحلال إنما هو الخطوة الأولى المادية فى الطريق إلى الله ومثلها فى هذا الجانب مثل التوبة فى الجانب الروحى ، يقول سهل : « من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم »[1] .

ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له فى طريق الله نصيب .

ولا مناص من الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تتمرد الجوارح ، وحتى لا يكون ارتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على الإثم .

وقد يقول قائل إن هذه المسألة أمرها هين ، فالناس عادة يأكلون الحلال من مرتباتهم ، أو من مزارعهم ، أو من مهنهم ...

بيد أن الصوفية لا ينظرون إلى الأمور هذه النظرة السهلة ، إنهم يتحرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال ربا ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة فى العمل ، ومن ناحية إتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ وإن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل مجزيًا بالنسبة للأجر ؟

هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط ، هى مظهر من مظاهر الحرص على أن يعيش فى الجو الحلال الصافى ، وذلك أن :

---

(١) الكواكب الدرية .

من أحب أن يكاشف بآيات الصديقين ، فلا يأكل إلا حلالاً ، ولا يعمل إلا فى سنة أو لضرورة[1] على حد تعبير سهل :

وإنه ، كما يقول : « من لم يكن مطعمه من الحلال ، لم يكشف عن قلبه حجاب ، وتسارعت إليه العقبات ، ولا تنفعه صلاته ، ولا صومه ، ولا صدقته »[2] .

وقد بين سهل النتيجة العامة ، لأكل الحرام بقوله :

« يأتى على الناس زمان يذهب الحلال من أيدى أغنيائهم وتكون أموالهم من غير حلها ، فيسلط الله بعضهم على بعض : يعنى بالأذى والمرافعات عند الحكام .

فتذهب لذة عيشهم ، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف شماتة الأعداء .

ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، وتكون سادتهم فى بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين .

ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق لا يبالى من أين أخذ ، ولا فيما أنفق ، ولا كيف أهلك نفسه ؟ »

(٢)

أكل الحلال ... ومع ذلك فإن هذا الحلال نفسه ، لا يؤدى إلى خير إذا أسرف الإنسان فيه :

---

(١) الكواكب الدرية .

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى .

« ذلك أن البطنة أصل الغفلة » كما يقول سهل :

والدنيا – كما يرى – حرام على صفوة خلق الله ، لا ينالون فيها إلا بقدر الضرورة »[1] .

« ومادامت النفس تشتهى المعصية ، فلا يصل للقلب شيء من نور الطاعة ، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش »[2] .

وعامة الناس معنيون عناية شديدة بالأكل والشرب ، وبعضهم لا هم له إلا ذلك ، ويبين سهل أنواع عيش الناس ومنازلهم من ذلك فيقول :

« العيش على أربعة أوجه :

عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء ، فى العلم وانتظار الوحى وعيش الصديقين ، فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالمًا كان أو جاهلاً زاهدًا كان أو عابدًا ، فى الأكل والشرب » .

ويقول سهل : الضرورى للأنبياء والقوام الصديقين .

والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

ويعنى بالمعلوم . الأكل الذى ليس ضرورة ، ولا قوامًا ، ولا قوتًا إنما هو زائد على ذلك ، على أن الشبع بمعناه الحقيقى لا يؤدى إليه الأكل فحسب .

فمن ظن أنه يشبع من الخبز : جاع » .

---

(١) الكواكب الدرية : للمناوى .

(٢) الكواكب الدرية .

والإنسان يمكنه أن يعيش أيامًا دون أن يشعر بلهيب الجوع ، وقد سئل سهل عمن لا يأكل أيامًا : أين يذهب لهب جوعه ؟

فقال : يطفئه نور القلب .

على أنه من الطريف أن يسأل رجل سهلاً ، فيقول له :

يا أستاذ ، أى شيء القوت ؟

قال : الذكر الدائم .

قال الرجل : لم أسألك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس .

فقال : يارجل لا تقوم الأشياء إلا بالله .

فقال الرجل : لم أعن هذا ، سألتك عما لابد منه .

فقال : يا فتى لابد من الله .

كان سهل ، يوجه إلى الله حتى حينما يسأل عن الناحية المادية .

وبعد : فهذه بعض أقوال سهل فيما يتعلق بذلك ، إنه يقول لا يرى فى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، والاقتداء المصطفى ﷺ فى أكله ويقول :

لم ير الأكياس شيئًا أنفع من الجوع للدين والدنيا .

ويقول :

لا أعلم شيئًا أضر على طلاب الآخرة من الأكل .

ويقول :

جعل العلم والحكمة من الجوع ، وجعل المعصية والجهل فى الشبع .

ويقول :

ماعبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال ، وقد قال فى الحديث : « ثلث للطعام » فما زاد فإنما يأكل من حسناته .

ويقول :

إنما صار الأبدال أبدالا بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة .

ويقول :

رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع .

ويقول :

إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء كله .

ويقول :

لو كانت الدنيا دما عَبِيطًا كان قوت المؤمن منها حلالاً لأنه أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط :

ويقول :

إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت ، وعن الوصول : بسوء المطعم وأذى الخلق .

(٣)

الأكل الحلال وعدم الإسراف فيه :

ولابد من أمر ثالث حتى ننتهى من : « الطريق فى جوه المادى » .

إن الناس يتكالبون على الحياة ويجرون وراء العيش فى غير إجمال ولا رفق فى الطلب وإنما فى نهم وفى تهافت .

ويحاول سهل ، أن يجعل الناس يجملون فى الطلب ، ويترفقون فى الجرى وراء الدنيا ، ويجعلون لله حسابا فى تقديرهم وتصريفهم للأمور ، فيقول لهم :

« إن المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث يحتسب ، يطمع المؤمن فى موضع فيمنع من ذلك ويأتيه من حيث لا يحتسب »[1] .

« إن الله تعالى خلق الخلق ولم يحجبهم عنه ، وإنما جاءهم الحجاب من تدبيرهم واختيارهم مع الله تعالى ، وذلك هو الذى كدر على الخلق عيشهم » .

وينتهى سهل من مشكلة الاكتساب بقوله : « من طعن على لاكتساب ، فقد طعن على السنة » .

وذلك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يحث دائمًا على العمل والكسب ، يقول ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منَعوه » رواه البخارى .

وعن المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه ، عن النبى ، ﷺ ، أنه قال :

---

(١) حلية الأولياء .

« ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبى الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

وقال ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة » رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وينتهى سهل أيضا بأن :

« من طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان » وذلك أن الله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرًا﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2] .

ويقول الرسول ﷺ :

« لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا » من طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل . فقد طعن على الإيمان .

ولابد إذن من تنسيق ينسجم فيه الاكتساب مع التوكل .

---

(١) سورة الطلاق : الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) التوبة : ٥١ .

ولابد من الاكتساب ولابد من تفويض الأمر فى النتيجة لله ، سبحانه وتعالى ولابد من العمل المتقن ، ولابد من ذلك من أن يكل الإنسان أمر اجتناء الثمرة إلى الله ، سبحانه وتعالى .

ولابد من أن يعقل الإنسان ناقته ، ثم يتوكل على الله فى أمر حفظها ، يقول ﷺ : « اعقلها وتوكل » .

فإذا ما تأتى التنسيق بين الاكتساب والتوكل ، هدأ المؤمن واستراحت نفسه وأجمل فى الطلب ورضى بما قسمه الله له ، وغمره نوع من السكينة ويسرت عليه أمور الحياة .

الاكتساب والتوكل : ذلك قانون الإيمان ، وقانون الصوفية وما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده وإبراهيم بن أدهم – إمام من أئمة الصوفية ، ومنارة من منارات التقوى – كان متوكلاً على الله ، وكان يعمل فيأكل من عمل يده .

وهنا تتهافت كل الاعتراضات – اعتراضات أهل الدنيا – التى تتصل بالكسب نفيًا لوجوده فى جو الصوفية ، أو التى تتصل بالتوكل تحريفًا لمعناه وذهابًا به إلى غير سبيله ، ومن الحق أن :

« من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان .

« لقد اهتم سهل اهتمامًا كبيرًا بأكل الحلال ، وذلك لما لهذا الجانب ن مكانة كبرى فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفى كسب لحلال .

ولبيان هذه المنزلة نذكر الحديثين التاليين عن رسول الله ﷺ :

روى ابن مردويه – بسنده – عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾[1] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال :

يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وروى أحمد ومسلم بسندهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين : ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم﴾[2] .

وقال : ﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾[3] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام . وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » ..

ومن طريف ما يروى فى ذلك عن سهل – وهى قصة لها مغزاه العميق – أنه قال مرة : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أوليا

---

(١) البقرة : الآية : ١٦٨ .
(٢) المؤمنون الآية : ٥١ .
(٣) البقرة : الآية : ١٧٢ .

زمانى » ، فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد الله الزبيرى ، فذهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيرى – وكان جسورا لأنه ضرير : بلغنا عنك أنك تقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أولياء زمانى » ، فماذا صرت ؟ هل أنت نبى أو صديق ؟

فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ، ولست أنا نبيًّا ، إنما قلت هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى .. فقال له : وأنت صححت الحلال قال : نعم ، لا آكل دائمًا إلا حلالاً فقال له الزبيرى : وكيف ذلك ؟

فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفا أن أكون أعنت على نفسى ، ولترد على الستة الأخرى ، فبهذا صح الحلال ..

فقال الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ، ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء ، واعترف بفضل سهل رضى الله عنه .

الفصل الثانى
الطريق فى جوّ القدوة والتأسى

ونريد الآن – بتوفيق الله – أن نتدرج فى الطريق : سائرين مع أجوائه المترقية ، ومع منازله المتسامية ، حتى نصل مع « سهل » إلى تصوير الغاية التى يهدف إليها الذاهبون إلى الله ، على الأسلوب الذى سلكه سهل ورسمه ، وعلى الطريقة التى سار عليها وتقرب إلى الله بها .

والسؤال الذى يدور على الألسنة دائما هو :

ما مدى صلة الطريق بالسنة النبوية ، بسلوك رسول الله ﷺ ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1] .

فما هو موقف سهل من هذه الأسوة ؟ وما هو مدى التزامه ؟

إن اتباع الهوى هو سبيل المنحرفين .

يقول سهل :

« كل عبد يفعل طاعة أو يتخلى عن معصية بغير اقتداء فهو عيش النفس » أى حظها وهواها ، إنه وقد تخلى عن الاتباع إيجابا أو سلبا ليس إلا هوى .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

يقول الله تعالى :

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[1] .

أما سبيل المؤمنين فإنه الاتباع .

يقول سهل :

« أيما عبد قام بشيء مما أمر الله به من أمر دينه ، فعمل به ، وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله ، تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس فى الرأى ، والتفرق ... إلا جعله الله إمامًا يقتدى به ، هاديًا مهديًّا ، قد أقام الدين فى زمانه ، وأقام الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وهو الغريب فى زمانه ، الذى قال رسول الله ﷺ عنه :

« بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل فى شيء من السنة ، وكانت نيته متقدمة فى خوله الله ، إلا خرج الجهل من سره ، شاء أو أبى ، بتقديمه لنية .

ولا يعرف الجهلَ إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم » (إن الاتباع لم ، وعدم الاتباع جهل ، إنه جهل مهما بلغ صاحبه من الثقافة ، ذلك أن كل رأى فى عالم الأخلاق لا تأسى فيه إنما هو رأى ظنى ،

---

(١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

وهو رأى تسهل معارضته برأى آخر ، ويسهل نقضه برأى ثالث ، إنه إذن جهل حيث لا يقين فيه ، قال الله تعالى) :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكِّمُوكَ فيما شَجَر بينهم ، ثُمَّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ [1] .

وما من شك فى أن الفوضى الأخلاقية التى نعيش فيها ، والانحراف فى الشباب وفى الشيوخ الذى تعانى منه المجتمعات المعاصرة : إنما مرجعه إلى المحاولات الآثمة التى يدعو إليها الملاحدة من فصل الأخلاق عن الدين ، وإذا ما فصلت الأخلاق عن الدين : فإنها تتعرض لآفات كثيرة منها :

١ – أنها تفقد قدسيتها حيث يصبح منبعها بشريًا لا إلهيا ، وحيث تصبح بذلك رأيًا لا عقيدة .

٢ – تصبح جدلاً : ينكرها جملة من ينكرها : ينكره السوفسطائيون ، وينكرها نيتشه ، وينكرها الوجوديون ، ولا يرى هؤلاء ، ولا أولئك للفضيلة معنى ثابتًا ولا للخير مبادئ حقيقية .

٣ – تصبح نسبية : تتقلب مع أهواء الفرد ، ومع نزوات المنحرفين ومع شهوات المبطلين .

وينتج عن ذلك كله : اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، لا يأمن الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم .

---

(١) النساء آية : ٦٥ .

ومن أجل ذلك كان التأسى علمًا ، وكان حكمة أيضًا : حكمة بالنسبة للفرد : يأمن ويهدأ ، وحكمة بالنسبة للمجتمع : يستقر ويرقى .

وأما عدم التأسى فإنه جهل ، وإنه لسفه أيضًا :

﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[1] .

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[2] .

« واتباع السُّنن الدينى : ذلك هو طريق الهداية ، قال الله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[3] وكلمة سهل عن أصول الطريق مشهورة معروفة ، إنه يقول : أصولنا سبعة أشياء :

التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، ويتحدث سهل فى تفسيره عن الاقتداء برسول الله ﷺ فيقول فى قوله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[4] .

---

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٢) النساء آية : ٦٥ .
(٣) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) الحشر : ٧ .

قال : « أصول مذهبنا ثلاث » :

أكل الحلال ، والاقتداء بالرسول ﷺ فى الأخلاق والأفعال ، وإخلاص النية فى جميع الأعمال ، وقال : ألزموا أنفسكم ثلاثة أشياء ، فإن خير الدنيا والآخرة فيها : صحبتها بالأمر والنهى بالسنة ، وإقامة التوحيد فيها وهو اليقين ، وعلمًا فيه اتصال الروح .

وصاحب هذه الثلاثة أعلم بما فى بطن الأرض مما على ظهرها ، ونظره فى الآخرة أكثر من نظره فى الدنيا ، وهو فى السموات أشهر بين الملائكة منه فى الأرض بين أهله وقرابته ، فقيل : ما العلم الذى فيه إيصال الروح ؟

قال : « علم قيام الله عليه والرضا » .

﴿فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾[1] .

قال : « هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة ، فلا يضل عن طريق الهدى ، ولا يشقى فى الآخرة والأولى » انتهى

وقال : « من لم يكن اقتداؤه فى جميع أموره بالنبى ﷺ فهو ضال »

﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾[2] .

قال : « هم الذين صدقوا الله فى السر والعلانية ، واتبعوا سنة نبيهم ﷺ ، ولم يبتدعوا بحال » .

﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم﴾[3] .

---

(١) طه ١٢٣ .
(٢) الحج : ١٤ .
(٣) الجمعة ٢ .

قال : « الأميون هم الذين صدقوا محمدًا ﷺ ، نسبوا إليه لاتباعهم إياه واقتدائهم به ، ومن لم يقتد به فليس من أمته » .

يقول سهل :

« لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » .

ومن أجمل ما كتبه سهل فى الاتباع قوله بمناسبة قول الله تعالى : ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾[1] قال : حسن العمل الاستقامة عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة فى الدنيا مثل الجنة فى الآخرة ، ومن دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة فى الدنيا سلم من الآفات .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لو أن رجلاً ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له ، ثم قال : من مات على السنة فليبشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه فى الثرى ، قيل له : كيف يدفن نفسه ؟ قال : يميتها على السنة ، ويدفنها فى اتباع السنة ، لأن لكل شيء من مقامات العابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشوق والزهد والرضى والتوكل غاية إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية ...

فسئل عن معنى قوله : ليت للسنة غاية ، فقال : لا يكون لأحد مثل خوف النبى ﷺ أو حبه أو شوقه أو زهده أو رضاه أو توكله و أخلاقه ، وقد قال الله تعالى :

---

(١) الكهف : ٣٠ .

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾[2] : أى يزيد الله الذين اهتدوا بصيرة فى إيمانهم بالله وفى اقتدائهم بمحمد ﷺ وهو زيادة الهدى والنور المبين .

ويقول فى تفسير قوله سبحانه :

﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾[3] .

أى فلما عايظونا بالإقامة على المخالفة فى الأوامر وإظهار البدع فى الدين وترك السنن ، اتباعًا لوجود الأهواء ، نزعنا نور المعرفة من قلوبهم وسراج التوحيد من أسرارهم ، ووكلناهم إلى أنفسهم ، وما اختاروه فضلوا وأضلوا ، ثم قال :

« الاتباع الاتباع ، الاقتداء ، فإنه سبيل السلف ، ما ضل من اتبع ، وما نجا من ابتدع » .

ويقول فى تفسيره لقول الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا﴾[4] .

« يعنى بطاعة الله واتباع السنن » .

ومما لا شك فيه أن سهلاً كان متمثلاً – فى ذلك – لما روى عن رسول الله ﷺ :

---

(١) القلم الآية : ٤ .
(٢) مريم الآية : ٧٦ .
(٣) الزخرف الآية : ٥٥ .
(٤) التحريم الآية : ٦ .

فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :

« من أكل طيبا ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » .

قالوا : يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير ..

قال : « وسيكون فى قوم بعدى »[1] .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فقال :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، .. إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا : كتاب الله وسنة نبيه »[2] .

وعن مجاهد قال :

كنا مع ابن عمر – رحمه الله – فى سفر ، فمر بمكان فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[3] ..

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[4] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[5] .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وغيره . وحاكم واللفظ له وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وله أصل فى الصحيح .

(٣) رواه أحمد والبزار بإسناد جيد .

(٤) رواه البزار بإسناد لا بأس به .

(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين - ويقرن بين إصبعيه - السبابة والوسطى - ويقول :

« أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .. ثم يقول :

أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعًا فإلى وعلىّ »[1] .

وعنْ عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبى مجاب : الزائد فى كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتى بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عنزتى ما حرم الله ، والتارك للسنة »[2] .

وعن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انى أخاف على أمتى من ثلاث : من زلة عالم ، ومن هوى متبع ، ومن حكم جائر »[3] .

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولا أعرف له علة ..

(٣) رواه البزار والطبرانى والترمذى .

الفصل الثالث

الطريق فى جوّه الأخلاقى

يقول رسول الله ، ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد أوحى الله تعالى ، منذ أن كانت الأديان – الأخلاق الكريمة تتوالى على لسان رسله الأطهار ، وكان تمام هذه الأخلاق وكمالها إنما هو : رسولنا وإمامنا ، صلوات الله وسلامه عليه :

ولقد وصفه الله تعالى ، بقوله :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] .

ووصفه ، سبحانه ، بالرأفة والرحمة :

وحدد ، سبحانه ، طابع الرسالة الإسلامية بأنه الرحمة : فقال سبحانه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2] .

وقال ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وعلى أساس من عناية الإسلام بالأخلاق الكريمة قامت دعوة الصوفية إلى الأخلاق الفاضلة .

---

(١) القلم الآية : ٤ .

(٢) الأنبياء الآية : ١٠٧ .

ولقد حدد كثير منهم التصوف بأنه الأخلاق وقال سهل يحدد التصوف :

« التصوف ليس رسمًا ، ولا علمًا ، ولكنه خلق :

لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة .

ولو كان علما لحصل بالتعليم .

ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . ولقد ذكر الناس – عند سهل – الكرامات وأخذوا فى الحديث عنها مكبرين لها مشيدين بأمرها فقال سهل :

« وما الآيات ؟

وما الكرامات ؟ شيء ينقضى لوقته .

ولكن أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقًا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود » ، ويحمل سهل على المعاصى حملة مستفيضة ، ويقدم أمر الانتهاء عن المعاصى على عمل الطاعات .

يقول سهل :

« ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما﴾[1] .

---

(١) النساء آية ٣١ .

ولا يجتنب الآثام إلا صدِّيق مقرب .
أما أعمال البر فإنه يعملها البر والفاجر » .

وقال مرة أخرى : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق ، والمعصية الكبرى ، المعصية التى يراها الصوفية أقبح المعاصى ، المعصية التى تقف عقبة أمام كل تقدم فى طريق الله هى ما عبر عنها سهل بقوله : « ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب »[1] ولقد قيل له مرة :

ما أغرب الأشياء ؟

فقال : « قلب عرف الله ثم عصاه »[2] .

وإذا أقام العبد على معصية : فإن جميع حسناته تكون ممزوجة بالهوى ، لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص عن هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله تعالى .

ولقد صور الله تعالى – كما يذكر سهل – الطبائع المنحرفة ، ورسم طريق العلاج ؛ فطبع البهائم يصوره الله بقوله : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾[3] .

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾[4] .

---

(١) الكواكب الدرية .
(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى : الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾ ٢٥ من سورة محمد .
(٣) الحجر : ٣ .
(٤) محمد : ١٢ .

وطبيعة أهل الدنيا : اللهو ، واللعب ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر : فكل حياتهم :

« لعب ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد واستعبد الله هؤلاء وأولئك – ليخرجهم من طباعهم إلى طبائع تتسامى – بالتسبيح والتقديس والتحميد والتكبير والشكر ، حتى يسلموا من طبع الشياطين : اللهو واللعب ، ويقتربوا من طباع الملائكة ، يقول تعالى : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ، وله يسجدون﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يَسْتَحْسِرُون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ [2] .

ومن الناس من تكون طبيعته طبيعة السحرة ، طبيعة المكر والخديعة ، ويقول الله عن هذه الطبيعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[3] .

ويقول سبحانه :

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[4] .

---

(١) الأعراف : ٢٠٦ .
(٢) الأنبياء آية : ١٩ ، ٢٠ .
(٣) الأنفال آية : ٣٠ .
(٤) النساء آية : ١٤٢ .

ويصور الله العلاج بالنسبة لهؤلاء : لقد استعبدهم الله بالاقتداء بالنبى ﷺ ، بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والاستعانة بالله ، والصبر على ذلك إلى الممات[1] .

ومن الناس من طبيعته طبيعة الأبالسة ، وطبيعة الأبالسة : الإباء والاستكبار ، يقول الله سبحانه عن إبليس :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾[2] وعلاج الطبيعة الإبليسية : الدعاء ، والتضرع والالتجاء إلى الله ؛ لقد استعبدهم بذلك حتى يسلموا من طبع الأبالسة :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾[3] ؟

وأحب لهم الاعتصام بحبل الله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[4] .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[5] .

على أن شيئين يذهبان خوف الله من قلب العبد : الدعوى ، والمعصية وصاحب المعصية إذا خوفته واحتجبت عليه بالإيمان : ينقاد ويخضع ، ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ، ولا ينقاد للخوف البتة .

---

(١) حلية الأولياء .
(٢) البقرة : الآية : ٣٤ .
(٣) الفرقان آية : ٧٧
(٤) آل عمران آية : ١٠٣ .
(٥) آل عمران آية : ١٠١ .

ولا يوجد قلب أخلى من الخير ، ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله ، من قلب المدعى[1] .

على أنه من الواجب أن نتنبه إلى الجهل الدينى ، فإنه من الأسباب الكبرى فى المعاصى ، فإنه فى حقيقة الأمر إذا نظرنا إلى هؤلاء المؤثرين للدنيا المنغمسين فيها ، المرتكسين فى مساراتها ، فإننا نجده الجهل : يقول سهل : « أصل الدنيا الجهل » وفرعها الأكل ، والشرب ، والطيب ، والنساء ، والمال ، والتفاخر ، والتكاثر ، وثمرتها المعاصى .

وعقوبة المعاصى الإصرار .

وثمرة الإصرار الغفلة .

وثمرة الغفلة الاجتراء على الله .

يقول الله تعالى :

﴿كلاَّ بلْ ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[2] .

واستمر سهل يستفيض فى التحذير من المعاصى : منبهًا ، ومعرفًا ، ومبينًا ، ولقد آن لنا أن ننتقل إلى الطاعات وبيانها على ما وضحه سهل فى أمرها :

إن الانغماس فى الدنيا والارتكاس فى موبقاتها شر :

« والدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، والعمل كله هباء منثور إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه : أنت منه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا »[3] .

---

(١) حلية الأولياء .
(٢) المطففين آية : ١٤ .
(٣) الحلية .

وينصح سهل من أراد الاتجاه إلى حياة الخير قائلاً :

« لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث فى أخلاق الإسلام : ما حالك فيه حتى تسلم ، ويعظم قدره فى نفسك وعندك ، وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق »[1] .

فتش عن أخلاق الإسلام ، واجتهد فى التلبس بها .

وأول ما ينبغى فى ذلك : مخالفة الهوى ، ومخالفة الهوى – حسبما يرى سهل – من أفضل ما عبد الله به .

مخالفة الهوى فى سبيل الله ؛ وما كانت مخالفة النفس فى يوم من الأيام هدفًا فى نفسها ، إنها – فى الوضع الدينى السليم – ليست غاية ، وإنما هى وسيلة لتيسير سبيل الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع والتأسى برسول الله ﷺ ، إنها وسيلة تيسر الاستجابة إلى الله ورسوله .

وإذا ما أراد الإنسان السير على الطريق المستقيم فينبغى أن :

يطهر العلم من الجهل بالاتباع والتأسى .

ويطهر الذكر من النسيان بعدم الغفلة .

ويطهر الطاعة من المعصية[2] بالانقطاع عن الشهوات المنحرفة .

بل إن الخروج من الشهوات – حسبما يرى سهل – خروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

---

(١) الكواكب الدرية والحلية .

(٢) الحلية .

وأول ما ينبغى للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق ، وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المئونة ، والرفق فى كل شىء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، أو مع الهوى ، أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها : اكتساب العلم العالى (أى العلم بالتوحيد) ، والحلم ، والتواضع .

ثم لابد له من ثلاثة أخر وفيها : اكتساب المعرفة ، وأخلاق أهلها : السكينة ، والوقار ، والصيانة والإنصاف . ولابد لإحكام التعبد من : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة .

الفصل الرابع
الطريق فى جوّ التوبَة

لقد احتل موضوع التوبة من نفس سهل مكانًا كبيرًا .

وكان سهل على حق فى اهتمامه بموضوع التوبة : وذلك أن أول خطوة يخطوها الإنسان فى معراجه إلى الله تعالى إنما هى التوبة الصادقة .

ولقد حث الله سبحانه وتعالى عليها بشتى الأساليب ، وفتح سبحانه أبوابها على مصاريعها .

لقد أمر بها سبحانه فى القرآن الكريم :

﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ (١) .

وحث عليها فى الأحاديث بأسلوب فى غاية الجمال :

« يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم » .

وحث عليها رسول الله ﷺ فى أساليب مؤثرة :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار .

ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ويقول صلوات الله عليه وسلامه :

---

(١) النور الآية : ٣١ .

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

أما من الناحية العملية الواقعية ، فإن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره كثيرًا .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[1] .

وعن الأغر المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرّة »[2] .

ويقول رسول الله ﷺ – فيما رواه الأغر المزنى – :

« يأيها الناس توبُوا إلى الله ،فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[3] .

ويقول سبحانه : ﴿إن الله يحب التوابين﴾[4] .

والله سبحانه علق حبه على كثرة التوبة .

التوبة ولو لم يكن ذنب ، التوبة ولو لم تكن هفوة ، التوبة باعتبارها عبادة ، التوبة باعتبارها من الأبواب التى يدخل منها الإنسان إلى حب الله له .

وإذا أمعنا النظر فى موضوع التوبة نجد أنه تلازم الإنسان طيلة حياته ، وإذا كانت مقامات السالكين إلى الله يسلم بعضها إلى بعض ، ويترقى الإنسان فيها من مقام ينتهى منه إلى مقام يسير فيه إلى غايته

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) البقرة الآية : ٢٢٢ .

ليسلمه إلى مقام ثالث ؛ وهكذا ، فإن التوبة مقام أساسى يسلم إلى ما بعده ، ولكنه لا ينتهى ، وإنما يلازم الإنسان مهما ترقى فى معراجه إلى الله سبحانه ، ومن أجل ذلك كان الواقع فى حياة رسول الله ﷺ الاستمرار فى التوبة ، يوميًا يتوب صلوات الله وسلامه عليه توبة عبادة ، توبة تضرع ، توبة انكسار إلى الله ، طلبًا لمرضاته ، توبة تواضع وخشية ، توبة يدخل بها إلى حب الله سبحانه له ، التوبة إنها شعار كل صادق فى اتجاهه إلى الله .

وإذا كانت لم تأخذ حظها من الاهتمام عند بعض الناس فإنها ملكت على سهل شعوره ووجدانه ، وبلغ من أهميتها عنده أن أعلن أن :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

والواقع أنه إذا سار الإنسان فى جو من الفهم الذى يتسم بسعة الأفق بعيدًا عن قيود الألفاظ فإنه يستطيع أن يفهم من هذه الجملة أن المقصود بها أن يستمر الإنسان « متذكرًا » لله سبحانه فى جميع لحظاته وتكون على هذا الوضع « التوبة ذكر » .

وما هو الذكر إذا لم يكن تضرعًا إلى الله ومراعاة لحدوده أمرًا ونهيًا ؟

وما هى التوبة إذا لم تكن ذكر الله ومراعاة له فى الحركات والسكنات ؟

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أولى الألباب فيذكر من صفاتهم أنهم : ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ..﴾[1] .

---

(١) آل عمران الآية : ١٩١ .

أى فى كل أحوالهم ، أو ... فى كل أنفاسهم .

إنه إذا حسنت النية ، أمكن أخذ الأمور من جانب رحابة الصدر ، وسعة الأفق .

ولكن هذه الكلمة الجميلة من سهل « التوبة فرض على العبد فى كل نفس » أقامت عليه الدنيا وأقعدتها ؛ وما كان ذلك عن إخلاص ، كلا ، وإنما عن حسد ؛ يقول صاحب الكواكب الدرية :

« وأكثر فى الأرض من علوم الحقائق فحسده فقهاء بلده ، فنسبوه إلى عظائم بسبب قوله :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من البلد إلى البصرة فمات بها .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية :

« ولا نعرف من حياة سهل التى كانت تتسم ، فيما يظهر بالهدوء واعتزال الناس ، إلا حادثة واحدة هى نفيه إلى البصرة ، إبان فتنة الزنج (حوالى سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م) حين أنكر علماء الأهواز قوله بأن التوبة فرض .

أمَّا رأى سهل فى التوبة فى صورة واضحة فيتبين من النصوص التالية التى تحدث فيها سهل عن التوبة :

قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا﴾[1] . قال : التوبة النصوح ألاَّ يرجع ، لأنه صار من جملة الأحبة ، والحِبُّ لا يدخل فى شىء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تقله أرض ولا تظله سماء إلا هو متعلق بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف فى هذا الزمان أقل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول : دعنى أفعل كذا وكذا ، دعنى أتنفس ساعة ، ثم قال : إن التائب المخلص ، [تاج] ولو (كانت توبته) مقادر ساعة ولو مقدار نفس واحدة قبل موته .

وقال سهل : ليس شىء فى الدنيا من الحقوق أوجب عَلىَّ للخلق من التوبة ، فهى واجبة فى كل لمحة ولحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد من فَقْدِ علم التوبة ، فقيل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤمر به المبتدئ التحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة ، وهى التوبة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه .

---

(١) التحريم الآية : ٨ .

فقيل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال : علامتها أن يدع ما له فضلاً عما ليس له .

وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع من ذلك الذنب ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ ، كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول فيصير المحبوب مكروهًا ، ولكن يقهر عزم القلب فيرجع فى ذلك إلى الله عز وجل ، ويرفع إليه شكواه ، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه ، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه ، قال : دعوا القال والقيل كله فى هذا الزمان ، عليكم بثلاث : « توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفونه بينكم وبينه ، وأدوا مظالم العباد التى قبلكم فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت والخطر عظيم » ، فاتقوا الله وألزموا أنفسكم التوبة ، وقال : التائب يتقى المعصية ويلزم الطاعة ، والمطيع يتقى الرياء ، ويلزم الذكر ، والذاكر يتقى العجب ويلزم نفسه التقصير .

قيل : ما التوبة ؟ قال أن تبدل بدل الجهل العلم ، وبدل النسيان الذكر ، وبدل المعصية الطاعة ، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها .

قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا بجهل ، ورب جهل أورث علمًا ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، من لم يصلح

توبته فعن قريب تفسد توبته لأن الله تعالى يقول : ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾[1] .

وقال : « لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح مخافة أن يخرجه إلى غيره ، كما قالت عائشة رضى الله عنها :

اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال ، كان رسول الله ﷺ يدعنا بعد الطهر ثلاثا حتى تذهب فورة الدم » .

وقال : « التائب من يتوب عن غفلته فى كل لحة » .

ويقول : « ما من عبد أذنب ذنبًا ولم يتب إلا جره ذلك الذنب إلى ذنب آخر ، وأنساه الذنب الأول ؛ وما من عبد عمل حسنة إلا جرته تلك الحسنة إلى حسنة أخرى وبصره عقله تقصيره فى الحسنة الأولى ، لكى يتوب من تقصيره فى حسناته الماضية ، وإن كانت خالية صحيحة » .

---

(١) النحل الآية : ١١٩ .

الفصل الخامس
الطريق فى جوّ الإخلاص

تحتل فضيلة الإخلاص فى الإسلام مكانة كبيرة : إنها من الأسس الأصيلة فى قبول الأعمال مع الإيمان ، واتباع السنة ، ولن يقبل الله الأعمال ما لم تكن خالصة لوجهه .

ولقد وردت فى ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

﴿ألا لله الدين الخالص﴾[1] .

فما لم يكن خالصًا فليس لله فيه نصيب ، أى لا يتقبله سبحانه ، ولا يثيب عليه ، وهو مردود فى وجه صاحبه .

ويقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« أنا خير شريك ، من عمل لى عملاً وأشرك فيه غيرى ، تركته لغيرى » .

ويقول رسول الله ﷺ :

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة : فارقها والله عنه راض » .

---

(١) الزمر الآية : ٣ .

وما من شك أن بين معنى كلمة « الإسلام » وكلمة « الإخلاص » صلة لا تنفصم ، فالإسلام هو أن يسلم الإنسان قلبه لله ؛ إنه إسلام الذات – ممثلة فى القلب – لله وحده لا شريك له .

ولقد سئل رسول الله ﷺ ما هو ؟

فقال : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وهذا هو الإخلاص ؛ بل لقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإيمان ما هو ؟ فقال : الإخلاص .

ولهذه الأهمية لمعنى الإخلاص فى الإسلام ، اهتم به الصوفية اهتمامًا كبيرًا ؛ وقد احتل فى تفكير سهل مكانة تتناسب مع أهميته ؛ يقول سهل :

« نظر الأكياس فى الإخلاص فلم يجدوا شيئًا غير هذا ، وهو أن تكون حركاته وسكناته فى سره وعلانيته لله عز وجل وحده لا يمازجه هوى ولا نفس » .

وإذا سألت سهلاً عن الإخلاص ما هو ؟

قال : الإجابة ، فمن لم تكن له الإجابة فلا إخلاص له .

وقال : الإخلاص على ثلاث معان :

إخلاص العبادة لله ، وإخلاص العمل له ، وإخلاص القلب له » .

وليس أمر الإخلاص هينًا سهلاً ، فيما يرى سهل ، فلقد سئل :

أى شىء أشد على النفس ؟

فقال : الإخلاص .

قيل : ولم ذلك ؟

فقال : « لأنه ليس للنفس فيه نصيب » .

وقد ينتفى الإخلاص عن الفروض نفسها ، بل عن الإيمان ؛ ولقد سئل سهل عن ذلك :

هل يدخل الفرائض رياء ؟

فقال : نعم ، قد دخل الإيمان الذى هو أصل الفرائض حتى أبطله ، وصار نفاقًا ، فكيف العمل ؟ فكل من لم يعب أحد عليه فى ظاهره ، ويعلم الله خلافه من سره فى أى حال كان ، فهو المرائى الذى لا شك فيه » .

ويحذر سهل كل التحذير من الرياء الذى به ينتفى الإخلاص ، وكثيرًا ما تحدث عن الرياء ، ومن ذلك ما يقوله بمناسبة تفسيره لقوله تعالى :

﴿الذين هم يراؤون﴾[1] قال :

هو الشرك الخفى ، لأن المنافقين كانوا يحسنون الصلاة فى المساجد فإذا غابوا عن أعين المسلمين تكاسلوا عنها ؛ ألا ترى كيف أثبتهم أولاً مصلين ، ثم أوعدهم بالوعيد ؟

---

(١) الماعون الآية : ٦ .

واعلموا أن الشرك شركان : شرك فى ذات الله عز وجل ، وشرك فى معاملته ، فالشرك فى ذاته غير مغفور ، وأما الشرك فى معاملته قال :

نحو أن يحج ، ويصلى ، ويعلم الناس ، فيثنون عليه ، وهذا هو الشرك الخفى ، وفى الخبر :

« أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم إذا وصلتموه ، فإنه للرحم وليس منه شىء لله» .

وقد قال النبى ﷺ لمعاذ حين قال له : أوصنى يا رسول الله ؟

قال : « أخلص لله يكفيك القليل من العمل » ، ولقد تحدث عن حيل الشيطان ليفسد على الإنسان إخلاصه ، وذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿من شر الوسواس الخناس﴾[1] قال سهل :

ما الوسوسة ؟ فقال :

كل شىء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره ، ثم قال :

من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ؛ فوسوسة العدوّ فى الصدور كما قال :

---

(١) الناس الآية : ٤ .

﴿يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس﴾[1] .

يعنى فى صدور الجن والإنس جميعًا ، ووسوسة النفس فى القلب ، قال الله تعالى : ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2] .

وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدوّ ، ومعرفة العدوّ أجلى من معرفة الدنيا ، وأَسْرُ العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم تعرف أنه العدو أسرك ، فإنما مثل العبد ، والعدو ، والدنيا ، كمثل الصياد والطير والحبوب ، فالصياد إبليس ، والطير العبد ، والحبوب الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع ، فإن كنت صائمًا فأردت أن تفطر قال لك :

ما يقول الناس ؟ أنت قد عرفت بالصوم ، تركت الصيام .

فإن قلت : مالى وللناس ؟ قال لك :

صدقت أفطر ، فإنهم سيضعون أمرك على الحسبة والإخلاص فى فطرك .

وإن كنت عرفت بالعزلة ، فخرجت .

قال : ما يقول الناس : تركت العزلة .

فإن قلت : مالى وللناس ؟

قال : صدقت ، اخرج فإنهم سيضعون أمرك على الإخلاص والحسبة .

---

(١) الناس الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٢) ق الآية : ١٦ .

وكذلك فى كل شىء من أمرك يردك إلى الناس حتى كأنه ليأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس .

ولقد حكى أن رجلاً من العباد كان لا يغضب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك ، ففطن به العابد ،

قال : وكيف يجىء الغضب ؟ قال :

آتيك بشىء فأقول لمن هو ، فقل هولى ، فأقول : بل هولى ، فأتاه بشىء .

وقال العابد : هولى .

فقال الشيطان : لا بل هولى .

فقال العابد : إن كان لك فاذهب به ، ولم يغضب .

فرجع الشيطان خائبًا حزينًا ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتقى غروره .

ثم قال سهل : « عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة » اهـ .

ونتبين من النصين الآتيين مدى تقدير الإخلاص فى رأس سهل .

سئل عن خير العبادات فقال :

« الإخلاص ، لقوله : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له لدين﴾[1] .

---

(١) البينة : ٥ .

ويقول : « أفضل الطهارة أن يُطهِّر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يتولاه الله عز وجل ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان بِرًّا ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يثب عليها صاحبها يوم القيامة » اهـ .

وبعد : فإن الحديث الشريف الذى ابتدأ به الإمام البخارى كتابه العظيم : « الصحيح » يقول عنه بعض علمائنا : إنه ربع الإسلام ، وهو :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وإذا كان الإخلاص يبتدئ بالنية فإنه – فى الجو الإسلامى – يصاحب جميع الأعمال .

وإن من أعظم البراهين على صدق الإسلام ، وعلى صدق الرسول ﷺ ، هو هذه الأهمية الكبرى لفضيلة الإخلاص .

الفصل السادس
الطريق فى جوّ المعراج

اتخذ الصوفية الاقتداء برسول الله ﷺ شعارًا لهم ، ولهذا الاقتداء كانوا صفوة أهل السنة ، ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف والإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريبًا من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع : القدرية ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيه من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

وإن الاقتداء برسول الله ﷺ أساس أصيل اليوم لمعراج المؤمنين إلى الله ، بل لا أساس غيره ، وذلك أن الكتاب الوحيد الصادق الآن للتدين ما هو القرآن الكريم .. إنه :

١ – بالأسلوب الإلهى : هذا الأسلوب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه أسلوب هو تنزيل من لدن حكيم خبير عليم .

٢ – لم ينله تحريف ، فالقرآن الذى يتلوه المسلم الآن هو القرآن نفسه الذى كان يتلوه محمد ﷺ .

٣ – وهو لم ينله تحريف ولا تبديل ، لأن الله سبحانه ضمن حفظه : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] .

٤ – وليس فى العالم الآن – شرقيه وغربيه – نص مقدس بالأسلوب الإلهى ، وليس فى العالم الآن – شرقيه وغربيه – كتاب دينى إلا وقد ناله التحريف .

٥ – ومن أجل كل ذلك لا يتأتى الآن المعراج إلى الله إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق القدوة برسول الله ﷺ ، وكل ما يقال الآن عن صوفية فى الشرق أو فى الغرب عن غير طريق الإسلام إنما هو تهريج من التهريج ، وزيف من الزيف ..

* * *

والتصوف – طريقا وغاية – : هو معراج إلى الله .

كيف رسم سهل هذا الطريق فى مقاماته :

إنه يعرف التصوف هذا التعريف الجميل :

---

(١) الحجر الآية : ٩ .

التصوف ليس رسمًا ولا علمًا ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسمًا لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علمًا لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ورسم .

والإمام الغزالى يستفيض فى شرح هذه الفكرة من زاويتها العلمية فيقول :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ؛ فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد »[1] ..

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له : القواريرى ، وكان فقيهًا على مذهب أبى ثور ، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال الروذبارى : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل ..

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال =

والشبلى[1] ، وأبى يزيد البسطامى[2] ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

= عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ..

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) ..

(١) بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من (أسروشنة) ، صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفًا وعلمًا ، مالكى المذهب ، عاش سبعًا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وقبره ببغداد .

وكان الشبلى إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمه ربى فأنا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين ؛ قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ..

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصودًا مشهورًا بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه .

ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود الشرعية (انظر الرسالة القشيرية) .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحًا وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقينًا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

إن التصوف ليس علمًا نسبيا وليس بحثًا دراسيا ، وتلك حقيقة تبدو واضحة فى هؤلاء الذين يكتبون كثيرًا عن التصوف من المستشرقين ، ومن الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم .. كلاَّ ، إن التصوف ليس كذلك ، ولأنه شيء آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل أخطأهم التوفيق .. وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى صورة لضلال الطريق إلى الحقيقة .

أما سهل رضى الله عنه فإنه يقسم طلاب الحق من مبدأ الأمر إلى :

١ – مريدين .

٢ – مرادين .

ويذكر ذلك بمناسبة الآية الكريمة :

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[١] .

وكان من الممكن أن يذكر ذلك أيضًا بمناسبة الآية الكريمة :

﴿الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾[٢] ..

بل إن هذه الآية الأخيرة أصرح ..

يقول سهل عن الآية الأولى :

إن الله ميز بين المريد والمراد فى هذه الآية وإن كان الجميع من عنده ، وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد فى هذه السورة وغيرها ، وذكر المريد وهو موضوع العموم فى هذه السورة أيضًا ، وهو قوله تعالى :

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾[٣] .

فهو قصد العبد فى حركاته وسكونه إليه ، كما قال :

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾[٤] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) الأنعام : ٥٢ .
(٤) الشورى : ٣٨ .

فكل من وجد حال المريد والمراد فهو من فضل الله عليه ، ألا ترى أنه جمع بينهما فى قوله تعالى :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[1] .

قيل له : فما الفصل بينهما ؟

فقال : المريد الذى يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو فى الطلب بعد ..

والمراد : قيام الله تعالى له بها ، والرجل يجد فى نفسه ما يدل على المريد والمراد يدخل فى الطاعات وقتًا يجد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف وجهد ، نظرًا من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ، ورفيع الدرجات ..

قيل له : ما معنى المقامات ؟

قال : هى موجودة فى كتاب الله تعالى فى قصة الملائكة :

﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[2] وقال :

﴿ولكل درجات مما عملوا﴾[3] ..

وقال فى صفة المريد :

« شغل المريد إقامة الفرض ، والاستغفار من الذنب ، وطلب السلامة من الخلق » .

---

(١) النحل : ٥٣ .
(٢) الصافات : ١٦٤ .
(٣) الأحقاف : ١٩ .

وقال سهل :

« إن الله عز وجل ينظر فى القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعا له خصه بما شاء ، ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعًا ، وهما هاتان الخصلتان .

وقال : ما اطلع الله على قلب فرأى فيه هم الدنيا إلا مقته ، والمقت أن يتركه ونفسه .

وقال : القلب لا يملكه أحد إلا الله تعالى ، ولا يطيع أحدًا إلا الله ، فإذا ذكرت به فضع سرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت سرك عنده إلا هتكه إلا الله عز وجل » .

ومن أوائل ما يبدأ به سهل الحديث عن مقتضيات كلمة التوحيد إذا قيلت بحق : إنه يقول :

فمن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه فى شىء من أمره ونهيه ، فى سره ، وعلانيته ، أو يوالى عدوه ، أو يعادى وليه .

ولكن الاستجابة لله ولرسوله يقف فى طريقها حجب :

ويتحدث سهل مرة أخرى فى بيان هذه الحجب ، فيقول :

إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشىء .

ويستفيض سهل مرة أخرى فى بيان هذه الحجب فيقول :

الحجب السبعة التى تحجب الإنسان عن ربه عز وجل :

فالحجاب الأول : عقله ، والثانى : علمه ، والثالث : قلبه . والرابع : خشيته ، والخامس : نفسه ، والسادس : إرادته . والسابع : مشيئته .

فالعقل : باشتغاله بتدبير الدنيا ، والعلم : بمباهاته مع الأقران . والقلب : بالغفلة . والخشية : بإغفالها عن موارد الأمور عليها . والنفس : لأنها مأوى كل بلية ، والإرادة : إرادة الدنيا والإعراض عن الآخرة . والمشيئة : بملازمة الذنوب .

ويقول عن فتح القلب :

لا يفتح الله قلب عبد فيه ثلاثة أشياء : حب البقاء ، وحب الغنى ، وهم غد ..

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير من نفسه ؟

قال : إذا لم ير وقتا غير الوقت الذى هو فيه .

ومن الحجب أركان إبليس ، ولإبليس أركان سبعة ، يقول سهل : لإبليس سبعة أركان فى سبع مراتب ، بها ينال ولد آدم إلا من عصمه الله :

أوله : ما لا يعنى ، ثم المعصية جملة ، ثم الإصرار عليها ، ثم الغضب بالسرعة ، ثم الحقد إذا طال مكثه فى القلب ، والاستخفاف . وقلة أقدار الناس عنده ، فإذا بلغ – المرء – هذا فلا تسأل عما وراء ذلك .

فلما سئل سهل عن قوله : لا يعنى ، قال :

من اشتغل بشيء لا يعنيه من أمر آخرته نال منه العدو حاجته ، فكيف غيره ؟

ثم قال : « من تلفظ بلسانه شيئًا مما لا يعنيه لم يوفق للصواب فيما يعنيه » .

وكل من خاض فى الباطل لم يقم بالحق إذا لزمه أو نزل به ، وكذا حكم الله .

إن أهل الباطل لا يوفقون للرشد والحق ، تدخل الأشياء على الفارغ ، فأما المشغول فهو فى مزيد .

ثم قال سهل :

أحسنوا جوار نعم الله عليكم ، فإنها مازالت عن قوم فكادت ترجع إليهم ، ولا يطلع على عثرات الخلق إلا مخل جاهل ، ولا يهتك ستر ما أطلع عليه إلا ملعون .

ومن هذا الوادى ما يقول سهل : ما نظر واحد إلى نفسه فأفلح ، ولا أدعى لنفسه حالاً فتم له ، والسعيد من صرف نفسه عن أفعاله وأقواله ، وفتح له سبيل الفضل والإفضال ، ورؤية منة الله عليه فى جميع الأفعال .

ولكن مهما تعددت الحجب فإنه – كما يقول سهل – ليس بين العبد وربه حجاب أغلظُ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الذلة والانكسار .

وسهل يتحدث أكثر من مرة عن الدعوى وعن المدعين ، ويبدو أن سهلاً ضاق به نفسًا فأخذ ينفس عن ضيقه فى هذه الكلمات القوية عن المدعين ، وهو على حق فى كل ما كتبه عن هذه الفئة التى أضرت بالإخلاص وبالخلق فى كل زمن ، ومن ذلك ما يقول :

أدنى الدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله : إما ذنب يتوب منه أو بر ، فيقول : غدًا أعمل ، ولا يكون المدعى خائفًا أبدًا ، ومن لم يكن خائفًا – أى يخاف الله – لا يكون أمنًا ، ومن لم يكن أمنًا لم يطلع على الخزانة ، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حقوق الله من وجهين :

وجه من الظاهر ، ووجه من الباطن .

وقال : المذنب بإقراره بالذنب يسأل العفو فهو مطيع ، والمدعى للطاعة هو عاص لأنه يحكم لنفسه ما لم يحكم الله عز وجل له .

وهناك شيئان يذهبان خوف الله من قلب العبد أصلاً : الدعوى والمعصية ، وصاحب الدعوى لا يقر بالحق .

وقال : لا أعرف فى الدنيا قومًا أروح أبدانًا من الذين يدعون هذا الطريق – طريق التصوف * هم فى روح وسرور ، لأنهم اسقطوا عن أنفسهم العبودية واستراحوا ، فلا ضربًا يضربون ، ولا محرك يحركهم .

هم أشد من الزنادقة ، لأن الزنديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون فى وجدان القلوب ويتلذذون به ويكذبون ، ويغتابون ، ويفجرون ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا .

وقال : حكم المدعى أنه تصحبه هذه الثلاثة الخصال :

تصحبه التزكية لنفسه وقد نهى عن ذلك ، وجهله بنعم الله عليه ، وجهله بحاله .

وقال : أصل الهلاك الدعوى ، وأصل الخير الافتقار .

التقـوى

ولا مخلص من كل ذلك إلا بالتقوى .

ويعلن سهل فى صراحة أنه :

« لا تصلح التقوى إلا للمقتدى بالنبى ﷺ ، وبالصحابة .

ويقول سهل فى جمال جميل بمناسبة قوله تعالى :

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾[1] .

يعنى هو أهل أن يتقى فلا يعصى ، وأهل المغفرة لمن يتوب ، والتقوى هى ترك كل شىء مذموم ، فهى فى الأمر ترك التسويف ، وفى النهى ترك الفكرة ، وفى الآداب مكارم الأخلاق ، وفى الترغيب كتمان السر ، وفى الترهيب اتقاء الوقوف عند الجهل ؛ والتقوى هى : التبرى من كل شىء سوى الله ، فمن لزم هذه الآداب فى التقوى فهو أهل المغفرة .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[2] فيقول :

والمتقون هم الذين تبرءوا من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ، ورجعوا إلى اللجوء والافتقار إلى حول الله وقوته فى جميع أحوالهم ،

---

(١) المدثر : ٥٦ .

(٢) الطلاق : ٢ .

فأعانهم الله تعالى ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وجعل لهم فرجًا ومخرجًا مما ابتلاهم الله به » .

وإذا ما كانت القوى كان العمل :

أما العمل فإن لسهل فيه نظرية عميقة ، إنه يقول :

« ولا تصح التقوى إلا للمقتدى بالنبى ﷺ وبالصحابة » .

ويقول – فيما رواه محمد بن الحسن –

« أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق » .

وقال سهل : « من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو غافل » .

ويقول : « ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب .

وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر » ويقول سهل عن المؤمنين بالنسبة للعمل : « المؤمنون الذين وعدهم الله الجنة على ثلاثة مقامات : واحد آمن وليس له عمل فله الجنة ، وآخر آمن وليس له إثم وعمل صالحًا وهذا فى صفة : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [1] .

والثالث : آمن ثم أذنب ، ثم تاب وأصلح ، فهو حبيب الله فله الجنة .

---

(١) المؤمنون : ١ .

والرابع : آمن وأحسن وأساء ، يتبين لهم عند الموازنة ، ولله تعالى فيهم مشيئة والعمل الصالح ما كان خاليا من الرياء ، مقيد بالسنة كما يقول سهل ، ولابد أن يكون العمل الصالح مبنيا على الإيمان والعلم والإخلاص .

يقول سهل : « الإيمان بالفرائض وعلمها فرض ، والعمل بها فرض ، والإخلاص فيها فرض ، والإيمان بالسنن فرض بأنها سنة وعلمها سنة والعمل بها سنة ، والإخلاص فيها فرض ، والإخلاص بالإيمان العمل به » .

ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[1] قال : « أى أصوبه وأخلصه ، فإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل حتى يكون صوابًا خالصًا ، والخالص الذى يكون لله تعالى بإرادة القلب ، والصواب الذى يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب » .

ويقول الله تعالى :

﴿أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾[2] .

ويفسر سهل ذلك فيقول :

أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ، معناه لا يصلح لى لا ما كان خالصًا لى لا يكون لغيرى فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله تعالى وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه .

---

(١) هود : ٧ .
(٢) الأنبياء : ١٠٥ .

الذِّكـر

ومن العمل : الذكر . ولقد سبق أن كتبنا فى استفاضة عن الذكر فى كتابنا « العبادة » ، وكتبنا عنه فى استفاضة فى كتاب خاص بعنوان : ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ .

وذلك أن من أهم الطرق الموصلة إلى الله : الذكر ؛ وقد حث عليه القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول ﷺ ، وهو عماد السبل المؤدية إلى القرب .

ولقد هدد الله سبحانه الغافلين عن ذكره فقال :

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا﴾[1] .

ويقول سهل فى شرح ذلك :

« قد حكم الله أنه لا يعرض عبد عن ذكره وهو أن يرى بقلبه شيئًا سواه ساكنًا إياه إلا سلط الله عليه شيطانًا ليضله عن طريق الحق ويغريه » .

ويقول سهل عن الذكر :

« حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت » .

إن الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن هم خاصة الله وأولياؤه لا هم للدنيا ولا الدنيا منهم فى شىء ، ولا فيما فى الجنة رغبوا أخذ منهم

---

(١) الزخرف آية : ٣٦ .

الدنيا فلم يبالوا ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ﷺ ، لما عرضت عليه ، طرحوا أنفسهم بين يديه رضا وسكونًا إليه ، وقالوا :

لابد لنا منك أنت أنت لا نريد سواك ، فهم المتفردون بالله ، كما قال النبى ﷺ سيروا سير المتفردين إلى رحمة الله .

قالوا : ومن المتفردون يا رسول الله ؟

قال : الذين اهتدوا بالذكر لله تعالى ، يأتون يوم القيامة خفافًا قد حط الذكر عنهم أثقالهم قال سهل :

هم المشايخ المستَهتَرون[1] فى الذكر لله تعالى مجالسون كما قال النبى ﷺ يقول الله تعالى :

« أنا جليس من ذكرنى ، حيث ما التمسنى وجدنى .

وقال تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2] .

ويرى سهل أن الآية القرآنية الكريمة :

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾[3] .

تشير – مع معناها – إلى القلب ، إنه يقول :

الإشارة فى البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر ، ومنها ما هو خرب بالغفلة ، ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم » .

---

(١) المستهترون : بفتح التاءين هم المكثرون من الذكر .
(٢) البقرة : ١١٥ .
(٣) النمل : ٥٢ .

والذاكر على الحقيقة هو – فيما يرى سهل – « من يعلم أن الله مشاهده فيراه بقلبه قريبًا منه فيستحى منه ، ثم يؤثره على نفسه وعلى كل شيء من جميع أحواله » .

ويقول : « من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله » .

ولكن الخاتمة الجميلة التى نختم بها موضوع الذكر عند سهل هى قوله :

« من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر ، فقد ضيع حاله » .

الحمـد

ومن الذكر : الحمد :

والحمد لله هو مفتتح سورة الفاتحة : نردده معها كل يوم أكثر من مرة فى سجودنا ، وهو من جملة الباقيات الصالحات التى أعلن عنها رسول الله ﷺ وهى : « سبحان الله ، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، جالسًا فى الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ؛ فرد رسول الله ﷺ :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته :

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغى له .

فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبى ﷺ :

« والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص

على أن يكتبها ، فما دَرَوا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدى »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما – فيما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه – أن رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبدًا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضَّلتْ بالملكين[2] فلم يدريا كيف يكتبانها ؟ فصعدا إلى السماء ! فقالا :

يارينا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟

قال الله وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها » .

ويقول سهل فى الحمد :

« ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التى ألهم بها الحمد أفضل من النعمة الأولى ، لأن بالشكر يستوجب المزيد » .

---

(١) رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالا : « كما يحب ربنا ويرضى » .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الذكر والدعاء » ومعنى عضلت : صعب عليهم تقدير ثوابها .

الشكر

ويتصل بالحمد : الشكر

ويقول الله تعالى :

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1] ويقول سهل : « أدنى الشكر أن لا تعصيه بنعمه ، ومرة أخرى يقول بهذا المعنى : أول درجات الشكر : الطاعة .

وحينما فسر سهل قوله تعالى : ﴿قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على﴾[2] .

قال : أى ألهمنى التوبة والعمل بالطاعة ، ونقول فى النهاية مع سهل :

« ليس للعبد أن يتكلم إلا بأمر سيده وأن يبطش إلا بأمره وأن يمشى إلا بأمره ، وأن يأكل وينام ويتفكر إلا بأمره ، وذلك أفضل الشكر الذى هو شكر العباد لسيدهم » .

ويسلم الذكر والحمد والشكر إلى التوكل .

ويزعم بعض الناس أن العمل الكسب ينافى التوكل ، فما حكم الدين ؟

---

(١) إبراهيم : ٧ .
(٢) النمل : ١٩ .

لقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعض الناس ، ولاحظ أنه لا يبدو عليهم أنهم من أهل العمل والكسب ، فسألهم : من أنتم ؟

فقالوا : متوكلون .

فقال : كذبتم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل : من ألقى حبة فى الأرض وتوكل على الله ، إن الجو الإسلامى كله ، ينادى بالعمل والكفاح ، فى سبيل الرزق والقوت ، ويبين أن العمل والكفاح لا يتنافى والتوكل ، بين ذلك من الناحية النظرية ، ومن الناحية التطبيقية .

أما الناحية النظرية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾[1] .

ولقد استفاض ، رسول الله ، ﷺ فى بيان وجوه الكسب ، ومما ورد فى ذلك ما رواه أبو داود ، عن أنس رضى الله عنه ، أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ فسأله ، فقال النبى له :

« أما فى بيتك شىء » ؟

قال : بلى حلس – وهو نوع من الكساء – نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب – وهو قدح للشراب – نشرب فيه الماء .

فقال رسول الله ، ﷺ :

« ائتنى بهما » .

---

(١) الملك : ١٥ .

فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ، ﷺ ، بيده وقال :

« من يشترى من هذين » ؟

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله ، ﷺ :

« من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال : « اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدومًا فأتنى به » .

فأتاه به ، فشد رسول الله ، ﷺ عودًا بيده ، ثم قال : « اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشرة يوما » .

ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا ، وبعضها طعامًا ؛ فقال له رسول الله ، ﷺ :

هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة » .

هذا من الناحية النظرية .

وماذا عن العمل من الناحية التطبيقية ؟

روى البخارى رضى الله عنه : « أن المهاجرين حينما قدموا المدينة آخى رسول الله ، ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فأراد سعد وكان من أكثر الانصار مالاً ، أن يشاطر عبد الرحمن ماله .

فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ،

ثم سأل عن السوق فدلوه عليه ، فذهب وباع واشترى ، ثم عاد ومعه بعض السلع وتابع الأمر من الغد .

وبعد قليل جرى المال فى يده فتزوج واستقل فى بيت وأصبح فيما بعد من أكثر المسلمين أموالاً ومن أكثر المسلمين صدقة » .

وهذا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق ليتاجر كعادته ، فلحق به الصحابة وتكاثروا عليه ليمنعوه قائلين : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال رضى الله عنه : لا تشغلونى عن عيالى فإنى إذا ضيعتهم كنت لغيرهم أضيع ففرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

ويستحيل أن يقال : إن الصديق ، أو عبد الرحمن بن عوف لم يكونا متوكلين ، فمن أولى إذن بالتوكل منهما ؟ .

والمثل الأعلى للكفاح الدائب الدائم إنما يتمثل فى رسول الله ، ﷺ ، وهذا الكفاح الدائب الدائم كان يصاحبه التوكل ويسبقه فى كل مشروع ويستمر بعد المشروع لأنه سبحانه :

﴿إليه المصير﴾[1] .

ولأن الوضع عند المؤمن هو ما عبر الله عنه :

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾[2] .

---

(١) غافر : ٣ .

(٢) هود : ١٢٣ .

والمؤمن مؤمن بقوله تعالى :

﴿ولله عاقبة الأمور﴾[1] .

وقد سبق أن كتبنا عن التوكل عند سهل ، وهذه نصوص له فى التوكل :

إنه يقول : « التوكل » الاسترسال مع الله على ما يريد » .

ويقول : « ما التوكل » ؟

التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والتبرى من الحول والقوة .

ويقول : « من طعن فى التوكل ، فقد طعن فى الإيمان » .

قال تعالى : ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [2] .

وهذه المقامات لا يستقيم أمرها ، ولا يقر لها قرار إلا إذا تحلى الإنسان بفضيلة :

---

(١) الحج : ٤١ .

(٢) المائدة : ٢٣ .

الصبر

وقد تحدث سهل عن الصبر أكثر من مرة فى استفاضة أحيانًا ، وفى إيجاز أحيانًا أخرى .

ومن أجمع أحاديثه عن ذلك ما يلى .

قيل : ما الصبر ؟

قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكثر من ثواب الصبر ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله إلا الله عز وجل .

قيل : الصبر من الأعمال ؟

قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه .

قيل : ما أجل الصبر ؟

قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟

قال : مجاهدة النفس على إقامة الطاعات ، وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصى صغيرها وكبيرها .

قيل : والناس فى الصبر كيف هم ؟

قال : الناس فى الصبر صنفان ، فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا

منها ما تشتهى أنفسهم فهو الصبر المذموم ، وصنف يصبرون للآخرة طلبًا لثواب الآخرة وخوفًا من عذابها .

قيل : فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع .

قال : الصبر للآخرة له أربعة مقامات . فثلاث منها فرض ، والرابع فضيلة : صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصيته ، وصبر على المصائب من عنده ، أو قال : صبر على أمر الله عز وجل ، وصبر على نهيه ، وصبر على أفعال الله عز وجل ، فهذه ثلاثة مقامات منه وهى فرض ، والمقام الرابع فضيلة ، وهو الصبر على أفعال المخلوقين ، قال الله تعالى :

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[1] .

أذن بالمثل وفضل الصبر ؛ ثم قال : ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[2] ولا يعين عليه إلا هو » والقمة النفيسة فى الصبر أن يصاحبه : الرضى وحينما يشرح سهل قوله تعالى : ﴿فصبر جميل﴾[3] يقول : الصبر مع الرضا . قيل : وما علامته ؟ قال : أن لا يجزع فيه . فسئل : بأى شىء يحصل التجمل بالصبر ؟

قال : بالمعرفة بأن الله تعالى معك ، وبراحة العافية ، فإنما الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل ، ثم قال :

---

(١) النحل : ١٢٦ .
(٢) النحل : ١٢٧ .
(٣) يوسف : ١٨ .

عجبت ممن لم يصبر ، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول : ﴿إن الله مع الصابرين﴾[1] .

* * *

إن ما سبق هو بعض منازل السائرين إلى الله التى تسلم إلى الولاية ، وقبل أن نتحدث عن الولاية نروى عن سهل ما يلى ، زيادة فى إيضاح الفكرة عن منازل السائرين للحق سبحانه :

« بادروا بالتوبة من السيئات حتى تأمنوا العقوبة ، وتصيروا أحباب الله ، فإن الله يحب التوابين » .

ويقول : « إن الأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب : إنما هى كفارات للصغائر ، وأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة ، ومثله كمثل حبر يصيب الثوب فلا يقلعه إلا الصابون الحاد ، والمعالجات بالخل والأشنان وغيره .

ومثل الصغائر كمثل قليل دبس[2] يصيب الثوب بيذهبه الريق ، وقليل من الماء فقيل : يا أبا محمد أليس قد روى أن المصائب كفارات وأجر ؟ فضحك ، وقال : إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب تكون كفارة وأجرًا كلاهما ؛ فأما إذا لم يصبر عليها ولم يحتسبها تكون كفارات وحططا لا أجر فيها ولا ثواب :

وبيان ذلك أن المصائب فعل غيرك ولا تثاب على فعل غيرك ، وصبرك واحتسابك فعل لك فتؤجر وتثاب .

---

(١) البقرة : ١٥٣ .

(٢) ما يسيل من الرطب .

وقيل : أى العمل يعمل حتى يعرف عيوب نفسه ؟ قال :
لا يعرف عيوب نفسه حتى يحاسب نفسه فى أحواله كلها .
قيل : فأى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟
قال : إذا ترك التدبير .
قيل : فأى منزلة إذا قام بها أقام الصدق ؟
قال : « إذا توكل عليه فيما أمره به ونهاه عنه » .
ويقول رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :
﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله﴾[1] يقول :
« العبادة زينة العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان فى ميادين العبودية والخدمة يترك ماله لما عليه » .
ويقول : « لا يكمل للعبد شىء حتى يصل علمه بالخشية ، ولعله بالورع ، وروعه بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة ، والمشاهدة بالتبرى مما سواه » .
وكان يقول : يلزم الصوفى ثلاثة أشياء :
« حفظ سره ، وصيانة فقره ، وأداء فرضه » .

---

(١) النحل : ٣٦ .

الولاية

يقول الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ (١) .

قد حدد الله سبحانه الولى بأنه المؤمن المتقى .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم كشأنه دائمًا فى اتخاذ القرآن والسنة ، إمامًا له فيقول : « الولى من توالت أعماله على الموافقة » وقال : « من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه » .

ويتحدث سهل عن الأولياء ودرجاتهم بمناسبة تفسيره للآية القرآنية الكريمة : التى صدرنا بها هذا الموضوع فيقول : هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ :

« إذا رُؤوا ذكر الله ، وهم المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالت أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقا .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً : أخماص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .

قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

---

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤ .

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ، فهم أبدًا فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال .

وما دام الإيمان يزيد وينقص فهناك إذن درجات فى الولاية ، وسم هذه الدرجات بأى اسم شئت ، فإنه كما يقول الأصوليون :

لا مشاحة فى الاصطلاح .

والأمر فى هذا التقسيم ، وفى التسمية لا يثير جدلاً إلا عند من ديدنهم الجدل ، فإنه ما دام هناك زيادة ونقص فهناك درجات ، وما دام هناك درجات ، فإنه يمكن وضع أسماء لهذه الدرجات والله سبحانه قسم أولياءه إلى درجات كثيرة يقول سبحانه :

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا﴾[1] .

---

(١) النساء : ٦٩ - ٧٠ .

ومن أولياء الله المتقون ، والأوابون ، والصابرون والمحسنون ، والمقربون ، والسابقون والسابقون ، وهكذا .

وإذا استولى الله وليًّا علمه .

ومن طرائف ما يروى فى ذلك حادثة الإمام الشعرانى مع الإمام الخواص :

لقد كان الإمام الشعرانى رضى الله عنه يمر بالإمام الخواص – وهو أُمى – يجد الناس تلتف حوله وتسأله ؛ وكان الإمام الشعرانى – قبل اتخاذ الإمام الخواص شيخا له – يضيق بذلك ذرعًا فيقول فى مواجهة الخواص ، وعلى مسمع من الناس :

« ما اتخذ الله من ولى جاهل » .

وتكرر ذلك والإمام الخواص لا يلتفت إليه .

وفى يوم من الأيام التفت إليه فى هدوء وقال له : « يتخذه ويعلمه » .

وبدأ الإمام الشعرانى العالم يتقرب شيئًا فشيئًا إلى الإمام الخواص الأمى ، وانتهى الأمر بأن اتخذه شيخًا وكتب عنه هذا الكتاب النفيس المسمى :

« درة الغواص فى أجوبة الخواص » .

ومن هذا القبيل يقول الإمام سهل :

« إن الله تعالى ما استولى وليًّا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ، إما ظاهرًا وإما باطنًا ؛ قيل له :

إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟

قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد .

قال أبو بكر السجزى : سمع منى هذه الحكاية الجنيد فقال : صدق سهل كان عندنا ببغداد عبد أسود أعجمى اللسان نسأله عن القرآن آية آية فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن وتلك دلالة ولايته » .

ومع ذلك فإن سهل – وهو الإمام المتزن – يحذر الأولياء فيقول :

« لو أن واحدًا دخل بستانًا فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولىالله ، فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكورًا .

وأعلى درجات الولاية هى درجة الصديقية .

ولقد سئل سهل عن هذه الدرجة فأخذ يتحدث عنها وعن أخلاق الذين ارتقوا بتوفيق الله إليها ، وعن أخلاق الأولياء على وجه العموم .

لقد سئل : من الصديقون ؟

قال : « الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس ، وحفظوا الجوارح والحواس فصار قولهم وفعلهم صدقًا ، وصار ظاهرهم وباطنهم صدقًا ، وصار دخولهم فى الأشياء وخروجهم عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقدم صدق عند مليك مقتدر » .

ومن أخلاقهم – كما يروى عنه أبو محمد الحريرى – يقول :

« من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم ، ولا يشبعون بطونهم ، وإذا وعدوا

لم يخلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء فى كلامهم ، ولا يمزحون أصلاً .

وبمناسبة تفسير سهل لقوله تعالى : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [1] .

يقول : « إن الله تعالى وصف بذلك من جبله بجبلة متعالقًا بسبب من سببه غير منفك عن مراقبته ، وهم الذين لم يختاروا قط اختيارًا ، ولا أرادوا شيئًا دونه ، ولا اختيارًا دون اختياره لهم ، كما اختاره لهم ، ولا أرادوا شيئًا يصرفهم عنه ، ومن غيره هم مبرءون » .

ويصاحب الولاية فى جميع مراحلها :

---

(١) الأنفال : ٣ .

الحب لله

وقد تحدث الله سبحانه أنه : ﴿يحب التوابين﴾[1] و ﴿يحب المتطهرين﴾[2] و ﴿يحب المحسنين﴾[3] .

وهكذا .

ومفهوم سهل فى المحبة مفهوم دقيق ، إنه يقول : « المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتكره ما يكره » ويرى سهل أن الحب لله يلازمه الخوف ، والمحب لا يفارقه الخوف ، ومن هنا يروى عن سيدنا أبى بكر أنه قال :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » .

ويقول سهل : « النيران أربعة ، نار الشهوة ، ونار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة .

فنار الشهوة تحرق الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق النيران كلها .

ولقد حكى أن على بن الحسين رضى الله عنه دخل مغارة مع أصحب له فرأى امرأة فى المغارة وحدها .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .
(٢) البقرة : ٢٢٢ .
(٣) المائدة : ٩٣ .

فقال لها : من أنت ؟

قالت : أمة من إماء الله إليك عنى لا يذهب الحب .

فقال لها على رضى الله عنه : وما الحب ؟

قالت : أخفى من أن يُرى ، وأبين من أن يخفى كمونه فى الحشاء ككمون النار فى الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، ثم أنشأت تقول :

« إن المحبين فى شغل لسيدهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا »

ولقد قيل لسهل : أى شىء يفعل الله بعبده إذا أحبه ؟

قال : يلهمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة ،

ويقول : قال الله لآدم : يا آدم إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير فضلى ، وخاف غير عدلى لم يعرفنى ، يا آدم إن لى صفوة وضنائن ، وخيرة من عبادى ، أسكنتهم صلبك ؛ بعينى من بين خلقى ، أعزهم بعزى ، وأقربهم من وصلى ، وأمنحهم كرامتى ، وأبيح لهم فضلى ، وأجعل قلوبهم خزائن كتبى ، وأسترهم برحمتى ، وأجعلهم أمانًا بين ظهرانى عبادى ؛ فبهم أمطر السماء ، وبهم أنبت الأرض ، وبهم أصرف البلاء ، وهم أوليائى وأحبائى .

درجاتهم عالية ، ومقاماتهم رفيعة ، وهممهم بى متعلقة ، صحت عزائمهم ، ودامت فى ملكوت غيرى فكرتهم فارتهنت قلوبهم

بذكرى ، فسقيتهم بكأس الأنس صرف محبتى ، فطال شوقهم إلى لقائى ، وإنى إليهم لأشد شوقا ؛

يا آدم من طلبنى من خلقى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فطوبى يا آدم لهم ثم طوبى لهم ثم طوبى لهم وحسن مآب .

يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين لكرامتهم على » اهـ .

وبعد : فإنا نختم هذا بهذه الكلمة الجميلة لسهل :

« طوبى لمن تعرف بالأولياء ؛ فإنه ربما استدرك ما فاته من الطاعة ، وإن لم يستدرك شفعوا فيه ؛ لأنهم أهل فتوة » .

الفصل السابع
الطريق من زاوية الولاية والكرامات

سبق أن تحدثنا فى بعض كتبنا عن الكرامات ، وأنها مذكورة ، فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية الشريفة .

والواقع أن الخلاف الذى يثار فى هذا الموضوع عادة إنما هو فى إثبات كرامة معينة لشخص معين ، وهذا الخلاف أمره هين ، ومن أنكر كرامة معينة وقعت بالنسبة لشخص معين ، فليس معنى ذلك أنه أنكر الكرامات جملة ، وإثبات الكرامات محل اتفاق بين أهل السنة .

ويتحدث سهل عن الكرامات وعن الأولياء فى كثير من النصوص المتناثرة هنا وهناك ، وحديثه عنها يتسم بالجد وبالعمق ، وهو يتحدث عن تجربة ومشاهدة ، ويتحدث عن منطق وعقل .

وتأمل أولاً ما يقول سهل : « أظهر الله تعالى آياته لأوليائه ، وجعل السعيد من عباده من صدقهم على كراماتهم ، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك ، وصرف قلوبهم عنه ، ومن أنكر آيات الأولياء ، فإنما ينكر قدرة الله تعالى ، فإن القدرة تظهر على الأولياء الآيات ، لاهم بأنفسهم يقدرون على إظهارها ، كما قال :

﴿ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون﴾[1] .

---

(١) غافر : ٨١ .

ويتحدث سهل – عن مخالطة ومشاهدة – عن بعض الكرامات فيقول :

« مخالطة الولى بالناس ذلّ ، وتفرده عزّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى إلا منفردين ؛ إن عبد الله بن عبد الله بن صالح رحمهم الله ، كان رجلاً له سابقة جليلة ، وموهبة جزيلة ، وكان يفرّ من بلد إلى بلد ، حتى يأتى مكة ، فطال بها مقامه فقلت له :

لقد طال مقامك بها ؟ فقال : ولم لا أقيم بها ، ولم أر بقعة ينزل فيها من الرحمة والبركة مثلها ؟ يطوف الملائكة حول البيت غدوة وعشية ، على صور شتى ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ، ولو قلت كلما رأيت : لصغت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين .

فقلت : أسألك بحق الحق ، أن تخبرنى بشىء من ذلك ؟

فقال : ما من ولّى لله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحضر فى هذه لبلد فى كل ليلة جمعة ؛ ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم لجيلى رحمه الله تعالى ، ليلة هاهنا ، ورأيت على يده غمرًا فقلت :

إنك لقريب العهد بالأكل ؟ فقال :

أستغفر الله فإنى منذ أسبوع لم أطعم شيئًا ، ولكنى أطعمت والدتى أسرعت لأدرك صلاة الفجر هاهنا جماعة ، وبين مكة وبين الموضع ذى جاء منه سبعمائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بلى .

فقال : الحمد لله الذى أرانى مؤمنًا .

وقال ابن سالم : كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأتاه رجلان لـ صلاة العصر وجعلا يحدثان ، فقلت فى نفسى : لقد أبطئا عنده ،

وما أراهما يرجعان فى هذا الوقت ، وذهبت إلى منزلى لأهيئ لهما عشاء ، فلما رجعت إليه لم أر عنده أحدًا فسألت عن حالهما فقال :

« إن أحدهما يصلى المغرب بالمشرق والآخر بالمغرب ، وإنما أتيانى زائرين » ا .هـ .

ولقد سئل سهل مرة عن كيفية إدراك منزلة الكرامات فقال :

« من زهد فى الدنيا أربعين يومًا صادقًا مخلصًا فقد ظهرت الكرامات من الله عز وجل له ، ومن لم تظهر له فهو لما فَقَدَ من زهده من الصدق والإخلاص » ا .هـ .

ولكن من هم الأولياء ؟ يتحدث سهل عن ذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾[1] قال سهل :

« هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ ، إذا رئوا ذكر الله ، وهم المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالت أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقًا .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة ، وبها صارو أبدالاً : أخماص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت

قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ؛ ومن علم إلى علم فهم أبدًا فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

---

(١) يونس : ٦٢ .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال » .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ [1] .

« إن الله تعالى خلق القلوب وأقفل عليها بأقفال ، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان فلم يفتح بتلك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وأنبياءه ، والصديقين وأولياءه .

وسائر الناس يخرجون من الدنيا ولم يفتح أقفال قلوبهم .

والزهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مقفلة ، لأنهم طلبوا مفاتيحها فى العقل فضلوا الطريق ، ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه ، والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك ، رقيب على جوارحك ، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالإخلاص مع المراقبة » .

ولقد تحدث سهل عن الأنبياء والأولياء معًا فى مواضع من تفسيره فقال :

« وما من أحد فى الدنيا إلا غلبه إبليس لعنه الله فأسره ، إلا الأنبياء صلوات الله عليهم . والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم فى مقاماتهم ، وعرضوا اطلاع الله عليهم فى جميع أحوالهم ، فعلى قدر

---

(١) محمد : ٢٤ .

مشاهدتهم يعرفون الابتلاء ، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة ، وعلى قدر فقرهم وفاقتهم إليه يعرفون الضر والنفع ، ويزدادون علمًا وفهمًا ونظرًا .

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد – ﷺ – من الخدمة ، وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبينا – ﷺ – إلا وقد خدم الله بها نبينا – ﷺ .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿السابقون السابقون﴾ (١) .

« هم الذين سبق لهم من الله الاختيار والولاية قبل كونهم ، المقربون فى منازل القرب وروح الأنس ، وهم الذين سبقوا فى الدنيا :

فسبق الأنبياء إلى الإيمان بالله ، وسبق الصديقون والشهداء من الصحابة وغيرهم إلى الإيمان بالأنبياء » .

وقال سهل : « انتهت همم العارفين إلى الحجب فوقفت مطرقة ، فأذن لها بالدخول فدخلت فسلمت ، فخلع عليها خلع التأييد ، وكتب لها من الرقع براءات .

وإن همم الأنبياء صلوات الله عليهم جالت حول العرش فألبست الأنوار ، ورفع منها الأقدار ، واتصلت بالجبار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

وقال : آخر درجات الصديقين أول الأحوال للأنبياء صلوات الله عليهم ، وإن نبينا – ﷺ – عبد الله تعالى بجميع أحوال الأنبياء .

---

(١) الواقعة : ١٠ .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾[1] قال :

يعنى ارزقنى قربة أوليائك لأكون من جملتهم ، وإن لم أصل إلى مقامهم » .

أما مهمة الأولياء فإن سهلا يتناسق فى تحديدها مع مهمة الرسل ، وهى الاقتداء برسل الله فى نشر الدعوة النبوية ، والجهاد فى سبيلها ، إنه يقول :

« إن الله تعالى أخذ على أوليائه التذكرة لعباده ، كما أخذ التبليغ على أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين .

فعلى أولياء الله أن يدلوا عليه ، فمتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين » .

ومع ذلك فأرجو أن يتدبر القارئ الكريم قول سهل ، وقد سئل عن الكرامات فقال : « وما الكرامات ؟ إن الكرامات شيء ينقضى وقته ، ولكن الكرامات أن تبدل خلقا مذمومًا من أخلاقك بخلق محمود » .

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد :

يا سيدى : ربما أتوضأ فالماء الذى يسيل من أعضائى يصير قضبانًا ن الذهب والفضة ؟

فقال له : « أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطوا خشخاشة يشتغلون ا ؟ » .

---

(١) النمل : ١٩ .

ونختم هذه النصوص بقوله عن الرسول – ﷺ – وقد سئل عن معنى قوله – ﷺ – « إنى لست كأحدكم ، إن ربى يطعمنى ويسقينى » فقال :

« ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب » .

وما من شك فى أن رأى سهل فيما سبق رأى موفق ، إنه يتلخص فى :

١ – لا شك فى أن الكرامات ثابتة بقدرة الله تعالى وواقعة لبعض الناس .

٢ – والكرامات فى نفسها على الخصوص تشجيع للمبتدئين فى العروج إلى الله .

٣ – وأفضل الكرامات هى التخلى عن الأخلاق المذمومة ، والتحلى بالأخلاق الحميدة .

الفصل الثامن

متناثرات عن الطريق فى الحِكَم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

لسهل بن عبد الله مجموعة ضخمة فيما يتصل بإرشاد الناس فى صورة موعظة أو حكمة أو توجيه أو نصيحة ، نذكر منها ما تيسر دون ترتيب معين ..

قال سهل : أيما عبد قام بشىء مما أمره الله به من أمر دينه فعمل به وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس فى الرأى والتفريق إلا جعله الله إمامًا يقتدى به ، هاديًا مهديًّا قد أقام الدين فى زمانه وأقام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الغريب فى زمانه ، الذى قال رسول الله – ﷺ فيه : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل فى شىء من السنة وكانت نيته متقدمة فى دخوله لله إلا خرج الجهل من سره شاء أو أبى بتقديمه النية ، ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم ، سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا الحسن النحاس جارنا ، يقول سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : الفترة غفلة ، والخشية يقظة ، والقسوة موت .

وقال : الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه من المرض ، ولهذا قال المصطفى - ﷺ - : « لا تغضب » وكرره

وقال : ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب .

وقال : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمصر هالك .

وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى .

وقال : مخالطة الفقير للناس ذل ، وبعده عنهم عز .

وقال :

الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص ، والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخروه .

وقال : الابتلاء كالمرض يمرض الواحد مائة سنة فلا يموت ، ويمرض آخر ساعة فيموت .

وقال عثمان بن محمد العثمانى ، سمعت أبا بكر محمد بن يحيى بن أبى بدر يقول ، سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله ، يقول : الانقطاع من الشهوات : الخروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : شيئان يذهبان خوف الله من قلب العبد : أصل الدعوى والمعصية ، وصاحب المعصية إذا خوفته واحتججت عليه بالإيمان ينقاد ويخضع ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ولا ينقاد

للخوف البتة ، ولا يوجد قلب أخلى من الخير ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله من قلب المدعى .

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟

قال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقال : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال : إن الله قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير فضلى ، وخاف غير عدلى ، لَم يعرفنى .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول :

من كمل إيمامه ، لم يخف من شيء سوى الله تعالى .

وسمعته يقول : لزوم الباب طلب العبد إلى مولاه أن يثبيه على الإيمان ويقبضه عليه .

قال : وسمعت سهل بن عبد الله ، يقول : من تخلى من الربوبية وأفرد الله بها ، واعترف بالعبودية وعبد الله بها ، استحق من الله الملك الأعظم فى حياة الأبد ، ومن نازع الله ربوبيته قصمه الله ، ألا ترى أنهم يحبون الغنى ، والله هو الغنى وهم الفقراء ، ويحبون الأمر والنهى ، والله تعالى يقول : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1] ، ويحبون البقاء ، والله تعالى يقول ، ﴿كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك﴾[2] ، ويحبون

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

الدنيا والله يبغضها ، ويريدونها والله لا يريدها ، فهم ينازعون الله الربوبية ويعادونه فيما أحب .

قال : أزهد الناس أصفاهم مطعمًا ، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا فى القيام بالأمر والنهى ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه .

والطهارة على سبعة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة الطاعة من المعصية ، وطهارة اليقين من الشك ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الظن من النميمة ، وطهارة الإيمان مما دونه .

وقال : فساد الدين بثلاث : الملوك إذا أخذوا فى السرف والشهوات ، والعلماء إذا افتوا بالرخص ، والقراء إذا تعبدوا بغير علم ، وإن العلماء يحتاج إليهم الخلق فى الدنيا والآخرة .

وقال : قوام الدين والدنيا فى ثلاث : العلم والأدب والمبادرة ، وهلاك الدين والدنيا فى ثلاث : الجهل والخرق والكسل .

وقال : أربع من دعائم الدين : القيام بالحق على نفسك وغيرها والقعود عن باطل نفسك وغيرها ، والمودة لأهل طاعة الله ، والبغض لأهل معصيته .

وفى قوله تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودًا وعلى جنوبهم﴾[1] قال : من أراد حفظ القرآن فليختم بثلاث ختمات على شرط :

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

ختمة قائمًا يصلى ، وختمة قاعدًا يدرس ، وختمة مضطجعًا على جنبه ، فإنه لا ينسى إن شاء الله عز وجل .

ومن اشتغل بطلب العلم بالتقوى ، وقراءة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، واتباع السنة ، واجتناب اللهو ، لم تصبه الأمراض والأسقام .

ومن أطاع الله بالعلم وصدق النية لم يفقد عقله وقال :

ليس للعبد حيلة سوى أن يواظب فى جميع عمره على قول : رب سلّم سلّم ، الأمان الأمان ، الغوث الغوث .

وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وعليك بالاقتداء فإنه أساس العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لم تستنمه حتى تدخل النار ، وعليك بالقنوع والرضى ، فإن العيش فيهما ، وإياك والائتمار على غيرك فإنه لينسيك نفسك ، وعليك بالصمت فأنت تعرف الأحوال فيه ، وعليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وعليك بسهر الليل تموت نفسك من ميلة طبعك وتحى قلبك ، وإذا صليت فاجعلها وداعًا ، وخف الله يؤمنك ، وارجه يؤملك ، واتكل عليه يكفك ، وعليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ .

وقال : ما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شىء دونه ، وما من عبد زال عنه كل شىء دونه إلا حق عليه أن يقوم بأمره ، وليس فى الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه ، ولا يتباعد أحد عن الله إلا بالاشتغال بغير الله ، وإنما تدخل الأشياء على الفارغ ،

وأما من كان مشغول القلب بالله لم تصل إليه الوسوسة وهو فى المزيد أبدًا واحفظ نفسك بالأصل ، قيل له : ما هو ؟ قال : التسليم لأمر الله ، والتبرى ممن سواه .

وفى قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾[1] قال : إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلص السر له ورجع عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم .

وفى قوله سبحانه : ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ [2] قال يعنى بلاء رحمة ألا ترون كيف بعثه على الرضا » .

وعن قوله تعالى ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله﴾[3] قال : أى ممن دل على الله وعلى عبادته وسنة رسوله ﷺ ، واجتناب المناهى ، وإدامة الاستقامة مع الله ، والاستقامة به خوفًا من الخاتمة ، وفى الطريقة الوسطى والجادة المستقيمة التى من سلكها سلم ، ومن تعداها ندم .

من استغنى بغير الله فبغناه افتقر ، ومن اغتر بغيره فبعزه ذل ، ألا ترى أن الله يقول : ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا﴾ [4] .

---

(١) الصافات : ١٠٧ .
(٢) الصافات : ١٠٦ .
(٣) فصلت : ٣٣ .
(٤) الجاثية : ١٩ .

وفى قوله تعالى ﴿والله الغنى وأنتم الفقراء﴾[1] قال : معرفة السر كله فى الفقر وهو سر الله ، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله عز وجل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وعن قوله تعالى ﴿وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾[2] قال : هى كلمة لا إله إلا الله فإنها رأس التقوى ، ثم قال خير الناس المسلمون ، وخير المسلمين المؤمنون ، وخير المؤمنين العلماء العاملون ، وخير العاملين الخائفون ، وخير الخائفين المخلصون المتقون الذين وصلوا إخلاصهم وتقواهم بالموت ، فإن مثله كمثل راكب السفينة بالبحر لا يدرى ينجو منه أم يغرق فيه ، والذين تم لهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ بقوله : ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ .

وفى قول الله سبحانه : ﴿ففرُّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾[3] .

قال : يعنى ففروا مما سوى الله إلى الله ، وفروا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن عذابه إلى رحمته ، ومن سخطه إلى رضوانه ، وقد قال النبى — ﷺ — « أعوذ بك منك فهذا أيضا باب منه عظيم » .

وقال سهل : تربة المعاصى الأمل ، وبذرها : الحرص ، وماؤها الجهل ، وصاحبها الإصرار ، وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرها اليقين ، وماؤها العلم ، وصاحبها السعيد المفوض أموره إلى الله تعالى .

---

(١) محمد : ٣٨ .
(٢) الفتح : ٢٦ .
(٣) الذاريات : ٥٠ .

وقال : لا يطلع على عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال :

من علم أن الله قريب منه فقد بعد عن كل ما سواه .

وقال :

دع التدبير والاختيار لله الواحد القهار ، فإن تدبير الخلق لأنفسهم هو المكدر لعيشهم .

وقال : من اشتغل بما لا يعنيه نال العدو منه حاجته فى يقظته ومنامه .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل معصية ، والتسويف ماء كل معصية ، والندم أرض كل طاعة ، واليقين بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة ، وبقدر ما تهدم من دنياك تبنى لآخرتك ، وبقدر ما تخالف نفسك وهواك وشهوتك ترضى مولاك وبقدر ما تعرف عدوك وعداوته – يعنى إبليس – تعرف ربك .

وقال : وسمعت سهلاً يقول : إذا جنك الليل فلا تأمل النهار حتى تسلم ليلتك لك ، وتؤدى حق الله فيها ، وتنصح فيها لنفسك ، فإذا أصبحت فكذلك .

وقال : الفرح كله فى تدبير الله لعباده .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : مخالطة الولى للناس ذل ، وتفرده عنهم عز ، وقلما رأيت وليا لله عز وجل إلا منفردًا .

وكان ، يقول : من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو غافل .

وكان يقول : قد أيس العلماء فى زماننا هذا من هذه الثلاث خصال : ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق .

وكان يقول : العيش على أربعة أقسام : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى العلم ، وانتظار الوحى ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالمًا أو جاهلاً زاهدًا كان أو عابدًا فى الأكل والشرب والضرورة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقوام للصديقين ، والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

وكان يقول : من سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

وكان رضى الله عنه ، يقول : الله قبلة النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا .

وكان يقول : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهله عن الناس ويحمل جهلهم ، ويترك ما فى أيديهم ويبذل ما فى يده لهم .

وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق إلا إن احتمل أذاهم وبذل لهم ما بيده وزهد فيما بيدهم .

وقال : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .

ومن كلامه رضى الله عنه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : ما طلعت شمس ولا غربت على أهل الأرض إلا وهم جهال بالله ، إلا من يؤثر الله على نفسه وزوجته ودنياه وآخرته ، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن يقف عند الشبهة .

وكان يقول : إن الله مطلع على القلوب فى ساعات الليل والنهار ، فأيما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس .

وقال سهل : لا تستصغر شيئًا من الذنوب وإن قلّ فإنهم قالوا : أربعة بعد الذنب أشد من الذنب ، الإصرار ، والاستبشار ، والاستصغار ، والافتخار .

وقد قال ابن مسعود – رضى الله عنهما – : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبابة وقعت على أنفه فقال هكذا بيده فطارت .

قوله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾[1] قال : لما نزلت هذه الآية خطب رسول الله – ﷺ – فقال فى خطبته !

« ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وان الخير كله بحذافيره فى الجنة ألا وان الشر كله بحذافيره فى النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[2] .

---

(١) الزلزلة : ٧ .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إتمام التقوى أن يتقى الله عبدُه حتى يتقيه فى مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا : يكون حجابًا بينه وبين الحرام .

سمعت أبا الحسن بن جهضم يقول : حدثنى طاهر بن الحسن ، قال : سمعت إبراهيم البرجى يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : ما أظهر عبد فقره إلى الله فى وقت الدعاء فى شىء يحل به إلا قال الله لملائكته : لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته : لبيك .

وقال : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى .

وقال : إذا قام عبد بما يجب لله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق .

سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الهجيمى ، يقول ، قال سهل بن عبد الله : الخلق كلهم بالله يأكلون ، وفى عبادته غيره يشركون .

وقال سهل : من دق الصراط عليه فى الدنيا عرض عليه فى الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط فى الدنيا دق له فى الآخرة .

سمعت أبا الحسن يقول : سمعت محمد بن المنذر يقول سمعت سهل ابن عبد الله يقول وسأله رجل ، فقال : يا أبا محمد إلى من تأمرنى أن أجلس ؟ فقال له : إلى من تكلمك جوارحه لا من يكلمك لسانه .

وقال : الخشية سر ، والخشوع علانية ، من خشعت جوارحه لم يقربه الشيطان ، قيل فما الخشوع ؟ قال : الوقوف بين يدى الله ، والصبر على ذلك .

قال : وكمال الخشوع ، ترك الآثام فى السر والعلانية .

يقول : كفى الله العباد دنياهم ، فقال عز من قائل :

﴿أليس الله بكاف عبده﴾[1] واستعبدهم بالآخرة ، فقال :

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[2] .

وفى قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا﴾[3] قال سهل :

أى أضدادا ، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء ، المنطلقة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله» .

وقال : البلوى قسمان :

بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة .

فبلوى الرحمة ، تبعث صاحبها على إظهار مقره وفاقته إليه تعالى ، وترك تدبير نفسه واختياره .

وبلوى العقوبة ، تبعثه على اختيار نفسه وتدبيرها » .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال :

---

(١) الزمر : ٣٦ .
(٢) البقرة : ١٩٧ .
(٣) البقرة : ٢٢ .

أروني الأصغر أريكم الأعظم ، أسماء الله كلها عظيمة ، أصدق وخذ أى اسم شئت يفعل معك » .

وسئل كيف يتخلص العبد من خدعة نفسه وعدوه ؟ قال :

« يعرف فيما بينه وبين الله ، وبعد عرفان حاله فيما بينه وبين الله يعرض نفسه على الكتاب والأثر ، ويقتدى فى الأشياء بالسنة » .

وقال : « الغضب أشد فى البدن من المرض : إذا غضب دخل عليه من الإثم أكثر مما يدخل عليه فى المرض » .

وقال : « الله معنا قريب إلينا ، فلابد لنا من أن نكون معه ، نؤثره ونطيعه ، فيكون إيثارنا له صدقنا بعلمنا فيه » .

ويقول : « إن الله يطلع على أهل قرية أو بلد ، فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسمًا ، فلا يجد فى قلوب العلماء ولا فى قلوب الزهاد موضعًا لتلك القسمة من نفسه ، فيمن عليهم : أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه » .

يقول الله تعالى : ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[1] فسئل ما الدنيا ؟ فقال :

الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم ، والعلم كله حجة إلا موضع العمل به ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، والإخلاص لا يتم إلا بالسنة ، ثم قال : دنياك نفسك ، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك .

وقال : « السرور بالله هو السرور ، والسرور بغيره هو الغرور » .

---

(١) النساء : ٧٧ .

وكان يقول : « إذا خلا العبد من الدنيا وهرب من نفسه إلى الله وسقط من قلبه أثر الخلائق لم يعجبه شيء ، ولم يسكن إلى شيء غير الله قط ، فالله مؤنسه ومؤدبه وكالئه وحافظه وجليسه وأنيسه : إياه يناجى ، وله يناجى ، وله ينادى ، وبه يستأنس ، وإليه يرغب ، وإليه يستريح .

قال الله جل ذكره :

طوبى لمن خلقته فعرفنى ، ودعوته فأجابنى ، وأمرته فأطاعنى ، ورزقته فحمدنى ، وأعطيته فشكرنى ، وابتليته فصبر لى ، وعافيته فذكرنى ومدحنى » .

وقال : خلق الله الإنسان على أربع طبائع : طبع البهائم ، وطبع الشياطين ، وطبع السحرة ، وطبع الأبالسة ، فمن طبع البهائم : البطن والفرج قال تعالى : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾[1] .

وطبع الشياطين : اللهو واللعب والزينة والتكاثر والتفاخر ، قوله تعالى :

﴿لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد﴾[2] .

ومن طبع السحرة المكر والخديعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله﴾[3] .

---

(١) الحجر : ٣ .
(٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) الأنفال : ٣٠ .

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[1] .

ومن طبع الأبالسة الإباء والاستكبار ، قوله تعالى :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾[2] .

واستعبد الله العباد بالتسبيح والتقديس والتحميد والشكر ، حتى يسلموا من طبع الشياطين اللهو واللعب يقول فى كتابه :

﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾[3] .

وقوله : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[4] .

ومن طبع السحرة استعبدهم الله بالاقتداء بالنبى - ﷺ - بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والتفضل ، والاستعانة بالله والصبر على ذلك إلى الممات .

ومن طبع الأبالسة استعبدهم الله بالدعاء والصراخ والتضرع والالتجاء :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾[5] .

يسلم به العباد إذ يعتصمون به .

---

(١) النساء : ١٤٢ .
(٢) البقرة : ٣٢ .
(٣) الأعراف : ٢٠٦ .
(٤) الأنبياء : ٢٠ .
(٥) الفرقان : ٧٧ .

وقوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾[1] .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[2] .

حتى يسلموا من طبع الأبالسة .

وكان يقول : أصل الدنيا الجهل ، وفرعها الأكل والشرب ، واللباس ، والطيب والنساء ، والمال والتفاخر والتكاثر ، وثمرتها المعاصى وعقوبة المعاصى الإصرار ، وثمرة الإصرار الغفلة ، وثمرة الغفلة الاستجراء على الله .

وقال : « النية اسم الأسامى ، والطاعات أسامى ، والنية الإخلاص ، وكما يثبت حكم الظاهر بالفعل كذلك يثبت حكم السر بالنية ، ومن لا يعرف نيته لا يعرف دينه ، ومن ضيع نيته فهو حيران ، ولا يبلغ العبد حقيقة علم النية حتى يدخله الله فى ديوان أهل الصدق ويكون عالما بعلم الكتاب وعلم الأثار وعلم الاقتداء » .

وينصح سهل من يحيطون به فيقول لهم : حققوا الخير بالفعل .

قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بخمسة أشياء ، لابد لكم منها :

أكل الحلال ، ولبس الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الحقوق كما أمرتم به ، وكف الأذى عن المسلمين ، كيلا يذهب بأعمالكم قصاصًا فى القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

قيل له : فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟ قال :

لابد له من عشرة أشياء ، يدع منها خمسا ويتمسك بخمس :

يدع وساوس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتم بالآخرة ، ويعين أهلها ، ويدع اتباعه الهوى ، ويتقى الله على كل حال ، ويترك المعصية ، ويشتغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله ، ويطلب العلم ويعمل به .

ويقول سهل : لا يكون العبد مقيمًا على معصية إلا وجميع حسناته ممزوجة بالهوى لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص من هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله .

وقال : أول ما ينبغى للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المئونة ، والرفق فى كل شىء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، و مع الهوى أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها اكتساب العلم العالى :

الحلم ، والتواضع ، والإنصاف .

ثم لابد له من ثلاثة أخر ، وفيها اكتساب المعرفة وأخلاق أهلها :

السكينة ، والوقار ، والصيانة .

وقال : من أخلاق الإسلام والإيمان : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل لعروف ، والنصيحة ، وفيها أحكام التعبد .

وقال : أركان الدين أربعة : الصدق ، واليقين ، والرضا ، والحب .

فعلامة الصدق : الصبر ، وعلامة اليقين : النصيحة ، وعلامة الرضا ترك الخلاف ، وعلامة الحب الإيثار ، والصبر يشهد للصدق .

وقال : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمصر ندمان .

وقال سهل : لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث فى أخلاق الإسلام ما حالك فيه حتى تسلم ويعظم قدره فى نفسك وعندك .

وكان يقول : إذا قام العبد بما لله تعالى عليه ، فحقيق على الله أن يقوم بما كان العبد قائمًا به لنفسه وقال :

لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن فتش عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره فى نفسك ، وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق .

وقال : « اعلم أن لله تعالى أمانة فى سمعك وبصرك ولسانك وفرجك ، وظاهرك ، وباطنك ، عرضها عليك ، فإن لم تحفظها خنت والله لا يحب الخائنين » .

وقال : العاصون يعيشون فى رحمة العلم ، والمطيعون يعيشون فى رحمة القرب .

وقال فى تفسير قوله تعالى :

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[1] قال « العمل الصالح ما كان خاليا عن الرياء مقيدًا بالسنة »

---

(١) الكهف : ١١٠ .

خاتمة

لقد أراد سهل أن يعود بفكرة العلم والعلماء إلى الجو الإيمانى الصادق ، وحديثه عن العلم والعلماء يستأهل التسجيل .

إن خيار الناس ، فيما يرى ، العلماء الخائفون ، وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا إخلاصهم بالموت ، رضى الله تعالى عنهم .

والعلم فى الدين ليس أهواء ، ولا ابتداعًا ، ولا اختراعًا ، ولكنه اتباع ، ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى :

﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1] قال :

العلم الكتاب والاقتداء ، لا الخواطر المذمومة ، وكل علم لا يطلبه العبد من موضع الاقتداء صار وبالاً عليه ، لأنه يدعى به .

ومنح الله ومواهبه كثيرة ، ولكن :

ما أعطى أحد شيئًا أفضل من علم يستزيد به افتقارًا إلى الله .

ويتحدث سهل عن الإخلاص فى العلم وعن شكره فيقول :

الدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، العمل كله هباء منثور ، إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه أنت منه لى وجل حتى تعلم هل قبل أم لا .

---

(١) الزمر : ٩ .

أما شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، فهو أبدًا فى هذا وهذه حاله .

ويربط سهل برباط وثيق بين العلم والعمل فيقول بمناسبة قوله تعالى : ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾[1] :

كل عالم أعطى علم الشر وليس هو مجانبًا للشر فليس بعالم ، ومن أعطى علم الطاعات وهو غير عامل بها فليس بعالم .

وكما للخمر سكر فإن للعلم سكرًا ؛ وقد دخل على سهل أبو حمزة الصوفى فقال :

أين كنت يا أبا حمزة ؟ قال :

كنا عند فلان ، وأخبرنا أن السكر أربعة .

فقال : أعرضها على .

فقال سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطنة ؛ فقال : وسكرتان لم يخبرك بهما ، فقال : ما هما ؟

فقال : « سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن يشار إليه » .

والعالم الربانى لا يخوض فى دنيا الناس ؛ يقول سهل :

« وكل عالم خاض فى الدنيا فلا تصغ لكلامه بل يتهم فيما يقول لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

---

(١) هود : ٨٨ .

وهذا الاتجاه بالعلم إلى جو العظة والعبرة والإخلاص والتجريد هو الاتجاه الصادق .

وسهل رضى الله عنه ما كان عالمًا فحسب ، وإنما كان مصلحًا للعلم .

أما من ناحية علمه فإنه يمثل الطابع العام لعلوم الصوفية :

إن العلم فى المجال الصوفى يدور حول القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف يدرسهما فى عمق ، وذلك ليأخذ منهما الأساس الصادق للقدوة والتأسى .

إن الصوفى يرى فى رسول الله ﷺ الأسوة ، ويدرس كل ما يتصل بحياته وبدعوته من كتب الأحاديث ، ومن كتب السيرة حتى يمكنه أن يستجيب للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1] .

أما القرآن الكريم فإنه نور الأنوار من اتصل به عن قرب مستجيبًا إلى هديه أشرق نوره فى قلبه وفى بصيرته ، وهُدى إلى الصراط المستقيم .

وسهل رضى الله عنه لا يمل من ترداد ما يحث على الاقتداء ، وعلى تخاذ القرآن والسنة أساسًا للسلوك وللأخلاق وللتشريع وللعقيدة وللسير لى الله عن بصيرة .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

وإذا أخذ الناس الذين فى قلوبهم زيغ يبحثون فى متشابه القرآن مما يتصل بالذات أو بالقدر والجبر والاختيار ، فإن سهلاً يوجه التيار فى رفق وحكمة إلى الهداية الحقة .

والهداية الحقة هى أن تسير إلى الله من باب الذلة والانكسار ، من باب الخشوع والخضوع ، ... من باب القدوة والاتباع .

ومن دراستنا لسهل نرى أنه :

درس واجتهد فى التفسير وفى السيرة وانتهى إلى هذه النفائس فى التفسير وفى التوجيه على النسق النبوى .

وإذا كان العلم لا يطلب لذاته ، وإنما هو وسيلة تنتهى إلى العقيدة الصادقة والخلق الكريم والسلوك المستقيم والعمل والإخلاص فى كل ما يأتى الإنسان وما يدع ، فإن سهلاً انتهى من علمه إلى الثمار الصادقة للعلم ، وكان مثلاً كريمًا للخلق الكريم .

والعلم والعمل هما القدر المشترك بين الصوفية جميعهم تقريبًا .

وهذان العنصران ظاهران فى حياة سهل رضى الله عنه .

على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هى الهداية إلى الله تعالى : هداية الحيارى ، وهداية الشاكين ، وهداية العصاة ؛ إنهم يدعون إلى الله على بصيرة ويدعون إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتى هى أحسن ، إنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

وهذه الرسالة هى رسالة رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ ، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده والصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن هناك إذ

ذاك تفرقة بين عالم الدين ، ورجل الدنيا ، فقد جمع الصحابة رضى الله عنهم بين علماء الدين ورجال الأعمال فى وحدة واحدة منسجمة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون فى سبيل الله ، وكما كان رسول الله ﷺ قدوة كان الصحابة رضى الله عنهم قدوة .

وحينما أصبحت الخلافة ملكًا عضودًا تخصص قوم فى علوم الدين كان : العلماء .

ولقد أخلص العلماء وجههم لله ، لا يبغون من وراء ذلك مالاً لا جاهًا ولا ملذات فانية : إنهم لم يشركوا بالله أحدًا فى وجههم ، كان المثل الكريم لهؤلاء إنما هم الأئمة الفقهاء والأئمة المحدثون من ثال : مالك والشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة وسفيان الثورى عشرات آخرين .

كان هؤلاء يقومون على سلامة المجتمع فى سلوكه وفى عقيدته فى عبادته وكانوا يقومون بواجب النصح للرعية والراعى ، وكان عاة يتقبلون النصح أحيانًا ويضيقون به أخرى ، ولكن العلماء سواء اق الرعاة بهم أم استجابوا وكانوا يمضون فى طريق الهداية لا يصرفهم ن ذلك صارف .

ولكن الحكام وقد تخلصوا هم من عبء الدعوة والهداية ، حيث بها العلماء أخذوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجيًا عن طريق ظائف والجاه ، وتدرج هذا شيئًا فشيئًا فقد بدأ ضعاف النفوس يرون تحت راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا ، وأخذت الدائرة ع شيئًا فشيئًا حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة .

وهنا ظهر فى المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعاة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا خلفاء الرسول ﷺ فى الدعوة ، وهؤلاء الخلفاء كانت نشأتهم ، وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده إلا أنه لم يكن هناك كلمة – بالنسبة للدعاة – أشرف من كلمة الصحابة ، ثم كانت كلمة التابعين هى العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ .

لقد ولد التصوف مع الإسلام ؛ والقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ كلها أعلام هداية فى طريق السالكين إلى الله سبحانه ، إنها أعلاء هداية من حيث الأساس الذى يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج فى السلوك ، وإذا تأملت فى طريق الصوفية أو فى غابات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداه .

وقام الصوفية بدورهم خير قيام : لقد اهتدى بهم الكثيرون وأسد على أيديهم أقطار بأكملها ، والإسلام فى أندونيسيا ، وفى هذه الأقطا البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية

إن الإسلام لم ينتشر بسيف ، وإنما انتشر بالدعوة بالحسنى وبالاقتناع ، وبالقدوة .

ولقد كان الصوفية بسمتهم الوقور ، وبالنور يشرق فى وجوههم وبالثقة التى فرضت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله ﷺ خ تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له الهداية وانصرف عنهم من يكتب الله له السعادة .

وهذه الرسالة لا مناص من أن تؤسس على العلم ، ومن هنا كان الصوفية معنيين بالعلم قرآنًا وسنة وسيرة فكان فيهم المفسرون وكان فيهم المحدثون ، وكانوا علماء هداة مرشدين .

وسهل خير مثال لهذا الجانب العلمى ، ولكنه مثال من مئات أو من ألوف كلهم على نسقه يسير فى تيار الهداية مؤسسًا ذلك على العلم .

ولابد فى الحياة من أناس تتوافر فيهم الثقة حتى يطمئن الناس إلى أن المثل الكريمة مازالت موجودة ، وأن الخير مازال باقيًا ، وإلا شقى الناس بعدم الثقة بعضهم فى بعض ، وإذا كانت النفس الأمارة بالسوء تهدم بمعاول من الشر الثقة فى النفوس فإن النفوس التى اطمأنت إلى الله ورضى الله عنها ، وأحبت الله ، وأحبها الله تعيد بناء الثقة ، وتعمل على نشر المثل الكريمة بسلوكها وسمتها ودعوتها .

وهذه المثل الكريمة ضرورة للمجتمع ، والتصوف إذن ليس ترفًا وإنما هو ضرورة لا يستقيم مجتمع خير بدونها ، لأنه لا يستقيم مجتمع بدون الإيمان بأن الخير لم يزل موجودًا .

ومحاربة التصوف إنما هى محاربة للمجتمع ومحاربة لبث الثقة فى المجتمع .

ورضى الله عن الأعلام الهداة منذ ابتداء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ورضى الله عنهم فى جنة الخلد مأواهم ومستقرهم ، ورضى الله عنهم حينما يتحقق واقعيا ما يقوله الرحمن الرحيم الودود :

﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾[1] .

وصلى الله وسلم وبارك على مشرق الهداية خير خلق الله وصفوته من عباده الذى قال له الحكيم العليم :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشيِّ يريدون وجهه ، ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[2] .

والذى قال له : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ [3] .

---

(١) القيامة : ٢٣ .
(٢) الكهف : ٢٨ .
(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .